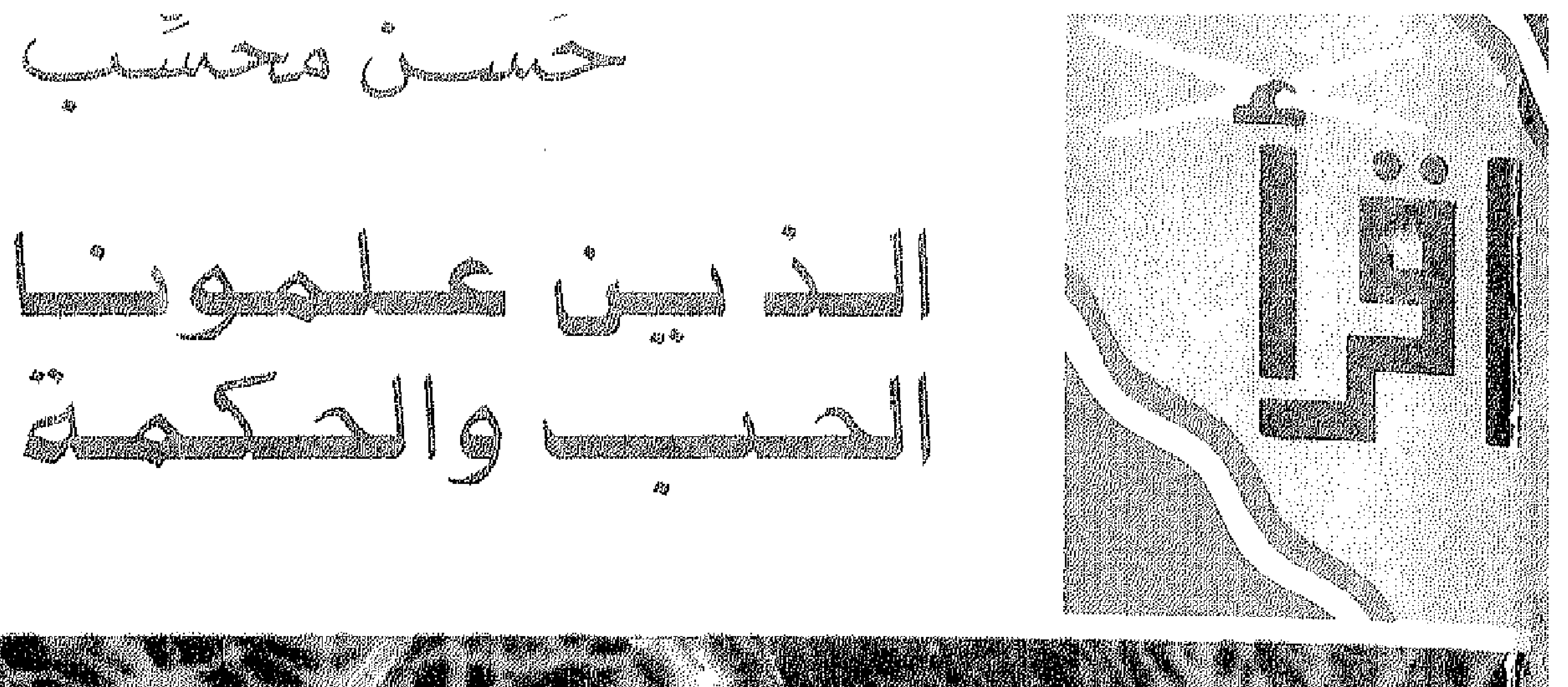

حسن محسب
الذين علمونا
الحب والحكمة
اقرأ

اقرأ

تصدر أول كل شهر

[٥٠٣] سبتمبر - ١٩٨٤

رئيس التحرير أنيس منصور

حسن محسِّب

الذين علمونا الحب والحكمة



دار المعارف

تصميم الغلاف : منال بدران

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الإهــداء

إلى .. نجوم هذا الكتاب .

فهم بعض أساتذتى .. وأصدقائى ! ..

و .. كتبهم هى .. بيتى ! ..

وأفكارهم هى .. جامعتى ! ..

وأحلامهم هى .. طريقى ! ..

مع حبىَ وامتنانى ،

حسن محسب

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

المقــدمة

هذا الكتاب .. لماذا ؟ ! ..

* من منا لم يحلم .. أو يتمنَّ .. أن يلتقى ببعض الشخصيات الهامة التى عاشت قبلنا بكثير .. وتركت بصماتها على حياتنا ؟ ! ..

* تخيل معى .. إذن .. أنك تسافر عبر الزمان والمكان .. لتصل إلى عصور سابقة .. قديمة وحديثة .. لكى نلتقى بعدد من العباقرة الذين أرهقوا عقولهم بالبحث والتفكير .. من أجل أن يضيئوا عقولنا وقلوبنا بآرائهم المفيدة .. وروائعهم الأدبية والفنية الخالدة ! ..

* إن العشرات .. بل المئات ، من نوابغ البشر ، تركوا لنا اختراعات واكتشافات .. ومؤلفات عظيمة .. من أجل هدف نبيل .. وهو : أن يحققوا لبنى الإنسان .. الخلاص من الفقر الروحى .. والجهل الثقافى .. وأسباب التخلف ..

* ونحن جميعًا .. نعرف .. أنه .. لولا عطاء أولئك الصفوة من الموهوبين، الذين خصهم الله سبحانه وتعالى، بفيض من نور حكمته، وقبس من عبقرية الخلق والإبداع .. لظلت الدنيا .. فى ظلام .. ولكن .. بمشيئة الله وحده، حفلت كافة العصور بعدد من العباقرة، الذين أفنوا كل حياتهم فى العمل من أجل أن نكون نحن أكثر أملا وسعادة وتطورًا منهم ومن عصورهم ! .. فأى تضحية نبيلة قام بها هؤلاء الأساتذة العظام ؟ ! ..

* .. وإذا تركنا - بكل الاحترام - أشخاص أنبياء الله والذين كانوا فى صحبتهم الكريمة - وذلك لصعوبة الجرأة على إجراء أحاديث صحفية، معهم - ولو من باب التخيل طمعًا فى المزيد من حبهم وفكرهم المقدس .. ، فسوف نجد أمامنا مئات من البشر العاديين الذين يمكن تخيل لقائهم، وإجراء أحاديث صحفية، وأدبية، وحوار فكرى عميق معهم .. أليس كذلك ؟ !.

* المسألة ليست بدعة، أو جريًا وراء تقاليع صحفية مفتعلة، أبدًا . إنها تستند إلى جذور أصيلة، يمكن استلهامها من تجربة العبقرية العربية «لابن الأثير» فى رسالته «رسالة الأزهار» و «المعرى» فى خالدته «رسالة الغفران» .. التى جال بها خلال العالم الآخر بجنته وناره، وتخير لحواره الفكرى العظيم ما شاء من أشخاص زمانه والسابقين عليه .. كذلك قلده فى ذلك - كما نعرف، «دانتى» الشهير برائعته : (الكوميديا الإلهية)، وهكذا .. وهكذا ..

إلى أن لجأ بعض الكتاب المعاصرين، إلى مثل هذه الوسيلة - التخيل - لإجراء أحاديث صحفية مع العباقرة، مثلما فعل «محمد عبده عزام» فى كتابه عن الشاعر «أبى تمام».. الذى صدر فى الأربعينات وكما فعل الكاتب والصحفى «أحمد بهجت».. مثلا.. فى حواره بالأهرام مع الملك «توت عنخ آمون».. ومع «إبليس».. إلخ.. إلخ..

* .. يبقى أن أحاول تبرير شىء واحد.. هو: لماذا اخترت هؤلاء النوابغ والعباقرة.. دون سواهم؟!.. والحقيقة أن الاختيار كان صعبًا.. فأنا كصحفى محترف منذ عام ١٩٥٨.. ، وكأديب روائى محترف أيضًا منذ ١٩٥٧.. كان لابد أن أتتلمذ على عشرات وعشرات من النابهين فى الأدب والفن والفكر.. ولقد أحببتهم جميعًا لأنهم علمونى الكثير.. لكن - مع ذلك - كان لابد من اختيار هؤلاء فقط من بينهم.. لماذا؟!.

أولا: لأن فكرة إجراء أحاديث صحفية مع كل النوابغ.. لابد لها من توافر عشرات المراجع، إلى جانب قصص حياتهم ومذكراتهم، وكل ما قيل عنهم، ثم رصد أثرهم فى الحياة و.. و.. وليس هذا بالأمر السهل، إلا إذا توفر لى الوقت الطويل.. الطويل.. وما أصعب ذلك فى هذا الزمن!..

ثانيًا: هناك اعتبار آخر - وهام جدًّا، وهو.. أن هذه اللقاءات

مع هؤلاء النوابغ، كانت جزءًا من عمل أدبى إذاعى طويل - ٩٠ حلقة - مع أهم الشخصيات، فى الثقافات العربية والإنسانية - اقترحه وأخرجه للإذاعات المصرية والعربية أيضًا - الصديق الفنان الأستاذ «أمين بسيونى» - مدير صوت العرب - بهدف تقديم المزيد من الجرعات الثقافية المكثفة جدًا والوافية أيضًا، للإنسان العربى، من خلال الميكروفون.. أوسع الوسائل انتشارًا، وأكثرها تأثيرًا فى عقول الناس - فى هذا العصر - الذى يعانى فيه الناس من مشكلة الأمية الغالبة - للأسف!..

* .. ولعل فى هذا ما يكفى، كتمهيد، وإن كنت أود أن أضيف: أن هذه اللقاءات التى تخيلت حدوثها مع هؤلاء النوابغ، ما هى إلا وسيلة .. أو شكل عصرى جدًا، لتقديم دراسات أدبية وفنية وفكرية موجزة جدًا، وشاملة لقصص حياتهم ومؤلفاتهم وخلاصة أفكارهم - بتركيز شديد - لكى نعرف - بوضوح - فى عصر السرعة - كل ما يفيدنا عن الذين أضاءوا عقول الناس .. وقلوبهم.. لكى نزداد حبًا للحياة .. ونحاول أن نعطيها بعض ما تعلمناه عن .. ومن أمثال هؤلاء الأساتذة الخالدين وغيرهم فهم بحق - بعض - الذين علمونا الحب والحكمة .. وقفزوا بنا فوق هوة اليأس ..

والله ولى التوفيق.

محسن محسب

طاغــور

أريدُ أن أحيا مع البشر
فى ضوءِ الشمس فى هذه الحديقة المزهرة
وسَطَ القلوبِ الحية دَعْني أجدْ مكانًا
على هذه الأرض - تَفيضُ الحياة دومًا
كم فيها من فِراق ولقاءٍ وضَحِكٍ وبكاء
دَعْني أبني بيتًا خالدًا
ينسِجُ أغانى من أفراحِ الناسِ وأحزانهم
فإن لم أستطِعْ فدَعْني ما عشت أجدْ مكانًا فى وسَطِهم
دعني أزرعْ صباحَ مساءَ زهورَ أغانٍ جديدَة لتَقْطِفُوها
خذوا زُهورى بوجهٍ مبتسم
فإذا ذَبُلَتْ - واأسفاه - فاطرحوها بعيدًا

* إلى صاحب هذه الأبيات الرقيقة التي تنبض بالتفاؤل وحب الناس .. نعبر المكان والزمان .. فنذهب إلى الهند فى أواخر القرن الماضى القرن التاسع عشر لنلتقى به .. «طاغور» .. شاعر الهند .. والإنسانية .. بدأ يكتب وهو فى العشرين من عمره .. وقد مارس حبه للحياة والناس، ودعا للحب والأمل فى كل أعماله المسرحية والشعرية والروائية .. بل إنه كان أيضًا مربيًا للتلاميذ، أهلا بشاعر الهند العظيم.

- هل تسمح لنا بدقائق من وقتك ..
- بكل الترحيب !.

قلت له: إنك لم تكتف بالكتابة عما تؤمن به، بل حاولت أن تطبقه عمليًّا من خلال إنشائك لمدرسة، وإشرافك على تربية النشء فيها .. هل تتكرم بإلقاء أضواء على هذه التجربة ..

قال طاغور: لقد تمنيت طوال ستين سنة عشتُها للتأليفَ وحده أن أسهم فى تربية أذواق الناس والوصول بهم ومعهُم إلى رهافة الحس، والتمتعِ بجمالِ الحياة، ونشرِ الفضيلَةِ فى ربوع الدنيا .. بحب وإخاءٍ ومساواةٍ وسلام لكنَنى فى بعضِ مراحلِ عمرى اقتنعتُ بأن أحلامى وأهدافى هذه تُؤتى ثمارها بطريقةٍ عملية أكثر، إذا اهتممتُ بالناشئةِ منَ تلاميذِ المدارس. نعم. تربيةُ الأطفالِ منذُ حداثتهم على فضائلِ الحبِ والسلامِ يكون أجْدَى. يكون عمليًّا. ولهذا أنشأتُ مدرسة وأدرتُها بنفسى ..

قلت : لعل شاعرنا « طاغور » فى هذا اللقاء السريع يأذن لنا فى إلقاء بعض الضوء على مواقف بارزة من شريط حياتك الطويلة .. نحن نعرف من كتب التاريخ والأدب .. أن والدكم « دفندرانات طاغور » كان رئيسا لجمعية « براهما ساماج » ماذا كان هدف الجمعية ؟

قال طاغور : كان هدف هذه الجمعيةِ التى أنشأهَا مصلح دينى اسمه « راموها راى » - الذى عاش فى المدة من ١٧٧٢ - ١٨٣٢ ويُعدُ أبًا للإصلاحِ الدينِى فى الهند .. آه .. كنت أقول . إن هدف هذه الجمعية كان هو التعاون مع قادة المسلمين الذين فتحوا الهند .. من منطلق نؤمنُ به هو لا يصح أن يقَع فى وَهْم واهم أن الله سبحانه وتعالى شريكًا فى المُلْك . وأن هؤلاء القادة جاءوا إلى الهند بعقيدة الإسلام التى تضعُ حدًّا حاسمًا لأى تأويل فى صفاتِ الله وقدرِته ورحمِته ورعايته لإرادة الإنسان ، وإنارتِه للعقل البشرى بالهُدىَ والرحمةِ والمحبة والإخاءِ بين كل البشر .

قلت له : قبل أن ننتقل إلى نقطة أخرى .. هل تسمح لنا بسؤال .. ما هو جوهر هذه النظرة الدينية المتعمقة التى تتضح فى حياتك وكتبك .. ؟

قال : هو القلبُ النقى الذى يملؤهُ نورُ المعرفة .. وكم تضرعت إلى الله فى أسفارِى والدموع تملأ عينى .. أن يأتىَ اليومُ الذى تزولُ

فيه الاختلافاتُ الوثنيةُ بين البشرِ جميعًا وتقومَ مكانَها عبادةُ الله الواحدِ اللامحدود .

* * *

وسألته : سيدى الشاعر العظيم « طاغور » .. لقد كتب والدكم سيرة حياته بنفسه وجعلها وصية واضحة لك .. ولكل الهنود .. ونحن نتوقف أمامها هنا فى إيجاز لكى نَتبين أثرها على دعوتكم كشاعر الحب والسلام .. فهل تذكر يا سيدى نصائح أو وصية والدكم لكم ؟ .

قال : لن أنساها أبدًا . لأنها موجزة فى ثلاثة بنود .. مفيدةٌ لكل إنسان ..

قلت : أولا .

قال : فى البدء لم يكنْ شىء . ولم يوجدْ إلا الواحدُ العلى الذى خلقَ الكونَ كلَّه .

* وثانيا ؟

– إنه إله الحق والحكمةِ واللانهائية .. والخير والقوة .. خالدٌ موجودٌ فى كل شىء .. واحدٌ لا ثانىَ له ؟

سألته : والثالثة ؟

قال : فى عبادتِه سبحانَه وتعالى . خلاصُنا فى أولانا وأُخرانا .

* * *

قلت : فى هذا المناخ الفكرى المتفتح المؤمن ولد «طاغور» .. فى يوم ٦ مايو ١٨٦١ .. وعاش مع إخوته السبعة وكان أصغرهم .. وكان أبوه دائم الترحال .. وكانت أمه مريضة بذات الرئة .. وكانت الهند تقاسى من الاستعمار الأجنبى ، يستنزف خيراتها ومخزونها من القمح وغيره من المحاصيل ، التى كانت وفيرة هناك .. ويسجل «طاغور» ذكرياته عن تلك الأيام بدقة فى كتابه (مذكراتى) .. ما هى أطرف ذكرى تقفز إلى ذاكرتكم الآن عن تلك الفترة ؟

قال : كان الخادم الذى كلّفهُ أبى وأمى برعايتى يُفَضِّلُ أن يخفف العبء عن نفسه بأن يَرْسُمَ لى - وأنا طفلٌ صغير - دائرةً من الطباشير على أرضِ الحديقة ولا يسمحُ لى أن أتجاوزها ..

* لعل هذا يفسر حبك للانطلاق فى رحاب الطبيعة ..

- معك حق . ففى تلك الأيام وجدتُ الطبيعةَ وجمالها خيرَ صديق لى ، فألقيتُ بنفسى بين أحضانها .. وصرتُ أكلمُها بلغةِ الفنِ إلى آخر العمر . نعم . نعم إننى أحبُ الطبيعةَ وسحرَ جمالِها الذى ظلَ يبعثُ فى وجدانى شوقًا مُحَرِّقًا إلى الغناء ..

سألته : لكن الطبيعة يا سيدى لا تثبت على حال .. ففيها إلى جانب الصفاء والهدوء العواصف والرعد والبرق والسحب الداكنة .. فلماذا أخذت من الطبيعة جانبها المشرق فحسب ..

فقال : تذكرى ياابنتى ، أنه كلما كان إيمانك قويًا بخالقِ الكون . وجدت حكمةً صافيةً فى كل شىء مهما كان كئيبًا للوهلةَ الأولى ..

وعلى سبيل المثال. لقد كتبتُ فى مذكراتى (عن الخريفِ والشتاءِ ، سطورًا .. أقول فيها :

* فى أيام الخريف والشتاء كنت أُهرَع إلى الحديقةِ لحظة استيقاظى من النوم فأشعر أن رائحة الأوراق والأعشاب المبللة بالندى تحضننى .. وأن الفجر يمد إلى وجهه حنونًا غضًا فى أشعة الشمس الباكرة ، إن الفجر جاء ليحيينى أنا وكل البشر ، وتحياتُ الفجر ملموسة ظاهرةً فى أوراق النخيل المهتزة بعنف ، إن الطبيعة تضم يديها وتسأل ضاحكة كل يوم .. عما فى باطنى .. فقلت لها ..

– ماذا فى باطنى ؟ هناك الجمالُ والحب وسحرُ الحياةِ على الدوام .. ليس هناك ثمة مستحيل .

قلت لطاغور : فى سن الثانية عشرة ، أتيحت لكم تجربة كانت عظيمة الأثر فى حياتكم .. ولعلها المسئولة عن روح التأمل والعمق فى النظرة التى تميزتم بها طول حياتكم ..

فقال : مهما تقدم بى العمر فلن أنسىَ هذه التجربة .. لقد صحبنى أبى معه فى تلك الفترة إلى بلدة « شانتينيكاتيان » ومعناها (دارُ السلام) على مسافة مائةٍ وخمسين كيلو مترًا .. إلى الغرب من كَلْكتا .. فى هذا المكان غرسَ أبى حديقةً صغيرة وأقامَ فى وسطِها منزلاً ومعبدًا يذكرُ فيه الخالقَ الفردَ الصمد . فتعلمتُ منه كيفَ أعبدُ الله .. وكيف أقرأُ كتبَ الفلاسفةِ المحبينَ له وكيف أستغرقُ فى التأمل .. وكيف .. ابتعدُ عن كل الاضطراباتِ التى تشوهُ جمالَ

الحياة .. و .. هنا فى حديقة أبي تعلمتُ كيف أعيشُ أولى أيامى السعيدة بكل الأمانة والحب فى أحضان الطبيعةِ وطلاقةِ الفكر ..

سألته : وكوخك الصغير فى جبال الهملايا .. هل مازلت تذكره ؟

قال : جزاك الله خيرًا يابنيِ إنك تذكرنى بمنابعِ الصفاء ، وأماكِنَ عرفتُ فيها بشرًا اعتنقوا عقيدة التوحيد .. ها .. إنه زمنٌ طويل حقًا . لكننى لم أنس ذلك الكوخ .

قلت : إن ما كتبته من سطور فى تلك الفترة مازال يصلح لأبناء عصرنا الذى يبعد عن عصرك بمسافة قرن من الزمان .. فما هى قصة هذا الكوخ ؟

قال : مع أبي أيضًا رحلتُ إلى جبال الهملايا . وسَط أوديةٍ رائعة الجمال . وأقمنا كوخًا صغيرًا وسط الأشجار المعمرة .. ويداعبُها اصطفاقُ الشلالاتِ وكتلُ الثلجِ العملاقة وهنا .. هنا . بالتحديد . كلمنى أبي . عن أهم حقائقِ الحياة ..

* هل يمكن أن تستعيد كلماته ؟

– لقد قال كلامًا كثيرًا .. سأوجزُ لك جوهره . لقد أرشدنى أبي إلى أهميةٍ التعلق بحبِ الحقيقة ، والاستقلالِ فى الحياة ، والشعورِ بعجائب الطبيعة ، وشرحَ لى عيونَ الآداب والفكرِ ، وعلمنى مبادئَ الفلك تحت قبة السماء ، وجعلنى أزدادُ حبًا وتعلقًا بلمعان الفجر الوردى . وكيف أنصُتُ لهداَةِ الصباحِ المبكرِ يغمرُه النورُ الإلهى المتدفق ..

قلت .. معتذرًا : إن الوقت لن يتسع - للأسف - للحديث مع الشاعر العظيم «طاغور» وتغطية كل حياته الخصبة التي امتدت ثمانين عامًا .. ولهذا .. ركزنا على نشأته الأولى .. علها تكون هاديًا لبعض الآباء والأبناء .. وبقى أن نوجه سؤالنا الأخير إلى « طاغور » ..

- هات ما عندك يا ابنى .. سل عما تشاء ..

* لك العديد من المؤلفات .. مثل رواية (البيت والعالم) ، و (المذكرات) ، و (انتقام الطبيعة) ، ودواوين منها (خطوط ومسطحات) ، وغير ذلك من كتب ... لكنى أريد منك الآن أن تختار لنا سطورًا من أحلى ما كتبت .. وما تفضل أن يحمل توقيع الشاعر «طاغور» فى هذه العجالة ؟ .

قال طاغور :

دعنى أبنى بيتا خالدا
ينسِج أغان من أفراح الناس وأحزانهم ..
فإن لم أستطعْ فدعنى ما عشت أجدْ مكانا فى وسط البشر
دعنى أزرعْ صباح مساء زهورَ أغانٍ جديدة ..
لتَقطِفوها ..
و .. خذوا زهورى بوجه مبتسم
فإذا ذَبلت - واأسفاه - فاطرحُوها بعيدًا
وازرعوا .. زهورَكُم أنتم . بوجه مبتسم

جوته

* من حماقة الإنسان فى دنياه
أن يتعصب كل منا لما يراه
وإذا الإسلام كان معناه أن الله التسليم
فإننا جميعا نحيا ونموت مسلمين
فلنهاجر إذن إلى الشرق الطاهر الصافى
كى نستروح جو الهداة والمرسلين
فإلى هنالك حيث الطهر والحق والصفاء

* * *

كما اتفقنا .. سوف .. نعبر الزمان والمكان لنلتقى بصاحب هذه الأبيات الشاعر الألمانى الشهير « جوته » .. الذى تحدث عن التقاء

الشرق والغرب كطريق إلى السعادة والنقاء والصفاء.. فى معظم أشعاره ومؤلفاته الخالدة..

الزمان: الربع الأخير من القرن الثامن عشر.. منذ حوالى مائتى عام.

المكان: مدينته فرانكفورت.. نقترب بالميكروفون من فارس هذا اللقاء.. سيدى الشاعر العظيم «جوته».. هل تسمح لنا بدقائق من وقتك..

قال: أهلا بك.. أنا رهنُ إشارتكِ.

قلت: قبل أن نبدأ.. هل تسمح لى بسؤال صريح..

– تفضل..

* كل من قرأ لك (آلام فرتر، وفاوست) وغيرهما يشعر بأنك تكثر من الحديث عن القلق.. هل تشعر بالقلق فى أعماقك ؟..

قال: لا أدرى.. لعل فى داخلى قلقًا كبيرًا، لا على نفسى كإنسان وإنما على البشر من حولى.. وربما لأن الناسَ يصرونَ على التعرف بِدافعِ الغريزة، أو سعيًا وراءَ الفرصِ، والغاية عند بعضهم ليبررُ الوسيلة، ومن هنا حاولتُ أن أجسدَ لهم بشاعةَ القلق، لكى أدعوهم إلى محبةِ (غذاءِ الروح)، و (محبة الإيمان)، بوصفها مسألةً تتعلقُ بثقافةِ العقل، وتنظم لنا نشاطَنا العقلى بطريقة أفضل وأكثرَ تحضرًا..

قلت له: بيننا وبين عصرك أكثر من مائتى عام، ومازال القلق

الذى صورته فى كتبك «أسعارك يأكل عصرنا ويكاد يعصف به، ومازلنا نحاول أن نفصل بين المدنية والقلق ونرجو أن نوفق، لكن هل تسمح لنا أن نعود إلى سنوات نشأتك الأولى فى مدينة فرانكفورت، حيث ولدت فى يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٧٤٩، أليس كذلك؟

قال «جوته»: هذا صحيح،.. ومازلتُ أذكُر هذه السنواتِ بوضوح،.. كانت أسرتى تنحدرُ من أصلٍ ريفى من الفلاحين والحرفيين.. وأصحابِ الفنادق. أما أسرةُ أمى فمنها بعضُ العلماءِ ورجالِ القانون، لكن جدى لأبى كان خياطًا ماهرًا. وأخيرًا استطاع تكوينَ ثروة بزواجهِ من صاحبة فندق شهير. ولما فشِلَ فى انتخاباتِ بلدية فرانكفورت، تمكن فى عام ١٧٤٢ من (ابتياع) لقب مستشار إمبراطورى، فصارِ على قدمِ المساواة مع المواطنين الأكثر احترامًا واعتبارًا، والطريفُ أن شراءَه، لهذا اللقب أبعده إلى الأبدِ عن المناصب الرسمية..

* تقول فى كتابك (الخيال والحقيقة) «إنك ورثت عن أبيك الوفاء.. وأخذ الحياة بجدية».. فماذا ورثت عن أمك؟

- كانت أمى شديدة الحيويةِ والمرحِ، وقد تعلمتُ منها كيف أسرُدُ القصصَ والروايات، لكننى مدينٌ فى الحقيقةِ لتربيةِ أبى لى، فمنذ طفولتى المبكرة كان زمامُ الإشرافِ علِى تربيتى بيدِ أبى، هذا الأب الذى كان يقدِرُ العلم، ويبذُلُ المستحيلَ فى سبيله، وقد وفر لى

معلمينَ خصوصيين - شأن أطفالِ البيوتِ الكبيرة - وجعلَهم يعلمونني اللاتينيةَ واليونانية. ثم وأنا في العاشِرة جعلني أقرأ ألف ليلةٍ وليلة، وهوميروس، وفرجيل، وأوفيد، والكتب الشعبية الألمانية كما اهتم بثقافتي الدينية..

* لكن نشأتك الأولى شهدت أحداثًا دامية ربما كانت السبب في القلق الذي تسرب إلى نفسك..

- لعلك تقصد حربَ السنوات السبع - التي قامت بين بروسيا والنمسا سنة ١٧٥٦.

* كم كان عمرك وقتها؟

- ست سنوات. وقد صدمتُ بعنفٍ من قسوة هذِه الحرب. وجدتُ نفسي متفرجًا على مأساةٍ بشعة؛ ومن هنا أخذتِ الشكوكُ تساوِرني إلى حدٍ ما..

قلت: ما دمنا نتحدث عن الحرب فلابد أن نشير إلى الأثر الفني المبكر الذي أشرت إليه في مذكراتك عن فترة احتلال فرنسا لمدينتك فرانكفورت..

قال: آه كانوا قد جلبوا معهم فرقةً مسرحيةً فرنسية، وتسنى لي أن أشاهدَ عروضَها بصورة منتظمة، كنتُ آنذاك في الحادية عشرةَ من عمري، وشاهدتُ مسرحياتِ (راسين، وموليير) ومازلت أتذكرُ بشغفٍ حيويةَ المسرح، وخاصةً عروضَ مسرحِ العرائس..

* أما زلت تذكر أول أبيات نظمتها من الشعر؟

قال : إننى لا أنساها أبدًا .. قلتُ فيها :

ما شَعَرْتُ بأننى لم أعط جناحين
لكى أضربَ بهما صُعُدًا
ولربما أيضًا.. حسبتُ أننى أملِكُهما وأستطيعُ الطيران
فما إن كدتُ أحلقُ بمفردى، حتى سارعَ الضباب
إلى إسدال حُجُبه أمامَ عينى،. حتى تراءت
لى شهرة الرجالِ العظام..

فأدركت للمرةِ الأولى كم يحتاجُ نبل الشهرة إلى جهودٍ مضنيةٍ.

* غريب .. إن الأبيات تكشف عن شوقك الغريب لأن تكون أديبًا يحلق بجناحيه، وعن إدراكك لمسئولية الأديب مع أنك كنت صبيًّا صغيرًا..

- هذا صحيح، .. كأنما كنتُ أحددُ خَط حياتى الذى التزمتُ به بعدَ ذلك، وهو اتجاه قد نحوت فيه إلى تحويل كل شىء إلى عملٍ يبعثُ البهجةَ والسرورَ فى نفسى، أو يعذبُنى ويؤلمنى.. المهم.. أننى ظللت أشغَلُ نفسى برسم صورةٍ أدبية، أو كتابةِ قصيدةٍ شعرية، لكى أتمكنَ من تصحيح مفاهيمى عن الأشياء.. وبالتالى تحقيق سعادتى، وتهدِئة دواخلِ نفسى.. ونشر المزيدِ من الجمالِ فى الوجودِ من حولى..

قلت: «تُلح عليك دائمًا فكرة الجمال.. هل توجز لنا فلسفتك فى الجمال..

قال : يقالُ إن النورَ هو الحقيقة ، وأقول إن النور هو الجمال .. الجمال مملكةٌ مؤكدة أقمتُ لها عرشَها فى كتبى كلها ، وكنتُ أبثُّ من خلالها أشواقى إلى الإيمانِ ونورِه الحقيقى ..

* أظن أن الوقت قد حان لكى نلقى نظرة معك على بعض أعمالك الشهيرة . (فاوست) مثلا ، (وآلام فيرتر) ..

– فى عام ١٨٣٠ وجدتُنى أكررُ على المستشارِ الألمانى « فون موللر » ، نفس كلماتِ (فاوست) التى أحب تَكرارَها ..

* وهى ؟

– يجبُ على المرءِ أن يتحولَ ويتغير ويتجددَ ويجدد شبابَه بصورةٍ مستمرة لئلا يتعثر ويصيبَه الجمودُ والتحجر ..

* قبل أن تكتب (فاوست) .. نجدك تكتب سطورًا لها مغزاها .

– نعم تلك التى قلت فيها إن عبقريتى كلها تنصبُ على مشروع من شأنِه أن يؤدىَ إلى نسيانِ « هوميروس وشكسبير » ، وكل شىء ، فأنا أعكف الآن على كتابةِ مسرحيةٍ لقصةِ واحدٍ من أنبلِ الألمان وأشرفِهم ، .. وأعملُ على إنقاذ ذكرى رجلٍ شجاعٍ وكريمِ الخلق ..

* من هو ؟ ثم .. ما هذا الغرور ؟

– إننى أتحدثُ عن مسرحيتى (العصفُ والاندفاع) ، وكانت عن قصة « جوتغريد برليشينجن » ، وهو لصٌّ ألمانىٌّ شهير ، رأيت أنه لا يقل فى مأساته عن « هاملت شكسبير » ، وكان ذلك عام

١٧٧١ .. أما عن الغرور الذى تسألنى عنه فأقول: إنك أمامَ عبقرية فذة مثل « شكسبير » لابد أن تتسلحَ بالثقةِ الكبيرة وإلا عجزت عن حمل القلم وإضافة أىِ شىء..

* هذا يأخذنا إلى رأيك فى « شكسبير » .. متى بالضبط تعرفت إلى مسرحه ؟

- كان ذلك فى ١٤ نوفمبر ١٧٧١ .. عندما دعيتُ لإلقاء خطابٍ قصيرٍ عن حبى « لهاملت » فى حفلٍ أقامتهُ ألمانيا فى ذكرى « شكسبير » . وقد هزنى فى « شكسبير » أنه ضَمَّن مسرحياتِه وحدة الكونِ والطبيعة ، وأضفى معناها على أبطالِه فى صراع الخير والشر ، والحقيقة أن مسرحياتِه كلها تدورُ حولَ النقطةَ التىَ لم يسبَقْ إدراكُها مسرحيًّا ، ولا تحديدُها فلسفيًّا ، وهى . نقطةُ تَصادم الغامض أنانيتنا مع إرادتِنا الطموحة للمثل الأعلى .

قلت له : ظهر كتابك الشهير .. (آلام فرتر) فى خريف عام ١٧٧٤ .. وأحسن الألمان استقباله ، كما ذاع ذيوعًا كبيرًا فى ربوع العالم بعد ذلك .. وهناك اتهام صريح بأنك جعلت من « فرتر » نسخة ألمانية من « هاملت شكسبير » ؟ .

قال « جوته » : ربما .. فالشاب « فرتر » يتحلى بحساسية عميقة وصافية ، وشفافية واضحة ، إنه يضيعُ نَفسه فى خضم الأحلام . ويظل يتأملُ تأملاً نظريًّا ، حتى يَثْقُبَ دعائمَ الأرضية التى يقفُ عليها ، وأخيرًا يقع - فريسة للأهواءِ والانفعالاتِ التى عصَفَتْ به فى

النهاية، ولكنني أصارحك بأنني لم أقصد، بل لم أتذكرْ « هاملت » وأنا أكتبُ عن « فرتر »..

* هل هو توارد خواطر.. أم تأثر بحبك « لشكسبير ».. دون أن تدرى..

– الإيضاحُ الوحيد هو أننى قصدتُ فى « آلام فرتر » تفسيرَ تلك الظاهرة المسماةِ بالعاطفية والتشاؤم، التى سادت خلال الربع الثالثِ من القرن الثامن عشر، وتأثرَ شبابِنا بالأفكار الكئيبة والسوداوية الواردةِ لنا من الأدب الإنجليزى، ودعوتُ إلى التمسكِ بأناشيدِ البطولة، وأدنتُ ظاهرة الانتحارِ.. بكلِ أشكالِها، المادية والمعنوية، إن الانتحار – جبنٌ يجبُ أن نرفُضَه من أجل أن يفيق شبابُنا إلى روعةِ الحياة.. ويؤمنَ بالمُثُلِ العليا.. إن (آلامَ فرتر) كئيبةٌ حقًا، لكنها تدعو للعكس.

* إذن فقد كنت تصور تردد « فرتر » لكى تدينه وتدعو إلى عكسه، تدعو إلى الصلابة والتماسك والأمل والتفاؤل ؟.

– هو ذاك – والجمال – أولا وأخيرًا ..

* ما هى السطور التى تحب أن نختتم بها هذا اللقاء الممتع ؟

قال جوته : متى عرف المرء قليلاً من حسناته، وامتلك الطاقاتِ اللازمة فإن الإحساس النبيلَ يبادرُ بسهولة إلى إيقاظِ الشجاعةِ من جديدٍ فى وجدانِه، وسرعان ما يزولُ التكاسلُ والتراخى واليأس ..

عندما ينقلبُ الإنسانُ على ذاتِه ولو لمرةٍ واحدةٍ فحسب، فإنه

يضعُ قدمه خارجَ التراخى، وينهض، ليكونَ عملاقًا. أقوى من كل الآلام..

قلت: للشاعر «جوته»، وأنا أحاذر من إزعاجه.

- هل مازلت تذكر قصيدتك عن الإيمان؟..

قال «جوته».. ووجهه يزداد صفاءً:

ملائكة الله فى موكب - ترفرف صاعدة هابطة - لتنعش أرواحنا بالنغم - وتسعدنا بغناء السماء.. فالخالق يحكم فى الأرض والسماء.. نظرته سادت فى البحر.. والموج تراجع للخلف.. والسيف المصقول اللامع أمس يتجمد فى الغمد - والأمل تحقق والدين.. وتجلت معجزة الحب..

نورًا فى صلوات المؤمن..

شكسبير

ضيفنا الذى نشد إليه الرحال عبر الزمان والمكان، لنلتقى به الآن.. يبدو كأنه يعيش بيننا.. فرغم أنه عاش فى القرن السادس عشر.. فإننا نشعر أنه يعيش معنا اليوم وكأنه أحد المعاصرين.. إنه الشاعر والمسرحى الفذ «وليم شكسبير».. ولا نزيد فى التعريف فهو لا يحتاج إلى المزيد.. ونتجه رأسًا إلى ضيفنا.. هل تسمح لنا بلقاء قصير؟

قال: مرحبًا بكم.. هل أنتم نقاد أيضًا؟.

قلت: (باسمًا) لا.. ولكن لم هذا السؤال عن النقاد..؟

– لا أدرى لم يقفون منى هذا الموقف.. تصور.. أحدهم يقول عنى إن المصادفة وحدها ساقت إلينا «شكسبير» هذا.. وإنى فى

دهشة، إنهم يرون فى هذا الـ.. «شكسبير» .. شيئًا من العظمة والسكينة والكمال.. وأنه صاحب صوت رنان فى غنائه بالنوازع البشرية.. كيف؟ هكذا تساءل ذلك الناقد.. وقال.. ما كان يجب أن يخرج «شكسبير» من قريته بسبب ما أوتى من موهبة فذة فى صيد الغزلان..

قلت: (ضاحكًا) غريب فعلا.. لكن إحساسك سينقلب رأسًا على عقب حين أقول لك إنه برغم مضى أربعة قرون بيننا وبينك، فإن النقاد جميعًا فى كل بلاد الدنيا يولعون حبًّا بمسرحك.. وإن الكتب والدراسات النقدية التى كتبت فيه لا تعدو كما أنك صرت مقياسًا لا أدبيًا، لكل من أراد أن ينتمى إلى عالم الفن والأدب عمومًا والمسرح والشعر على وجه الخصوص.

– قد تكون صادقًا يا ولدى.. ولم لا؟ إننى أريدك أن تتعلم حكمة موجزة.. جدًّا..

* وما هى هذه الحكمة..؟

– ليس هناك كلمة أو عمل لرجل ما، إلا ولها جذور منشؤها العالم كله بكل ثقافاته أجمع، ولابد أن تعود كلمات الرجل.. وأفعاله.. فالتأثير آجلا أو عاجلا، ظاهرًا أو باطنًا.. فى العالم أجمع..

قلت: دعنى إذن أنقل لك ما يقال عنك.. لعله يصلح مادة لهذا الحديث السريع بيننا ولعلنا نسمع تعليقك عليه..

- قل ما تشاء.. تفضل يا ولدى!.

* يقولون إنك كنت فلاحًا فقيرًا يحرث الأرض.. ثم تفجرت فى وجدانك موهبة الشعر بلا علمٍ وبلا ثقافة.. و..

قاطعنى «شكسبير»: لقد قالوا أيضًا عنى - وفى حياتى - إننى كنت صبى جزار، ووصل بهم الخيال إلى حد أنهم زعموا أننى كنت ألقى بالمواعظ والمراثى، كلما قمت بذبح شاة أو عجل.. (يضحك).

* وقالوا إنك كنت شابًا فاسدًا لا عمل له غير السُّطو على حدائق الأغنياء ومعزاتهم..

- أحدهم قال إننى اضطررت إلى الهرب إلى لندن بعد أن أصدر أحد الوجهاء امرًا بالقبض علىّ..

سألته: وهل.. تقول لنا الآن.. ماهى الحقيقة وسط كل هذه الأقاويل؟

قال «شكسبير» كنت فلاحًا هذا صحيح.. وعملت فى كل المهن التى كانت متاحة أمام كل فلاح فقير فى عهد الملكة «الباصبات»، لكن المهنة التى أحببتها وشكرت الله عليها فيما بعد، هى (حارس جياد) فى لندن..

* لأنها هى التى أدخلتك إلى عالم المسرح..

- نعم.. كنت أحرس جياد المتفرجين أمام أحد المسارح فى لندن، ثم استطعت إقناعهم بموهبتى، فعملت ممثلا بنفس المسرح،

ثم كتبت مسرحياتى التى جعلتنى أملأ جيوبى بالنقود ، وأعود إلى بلدتى « ستراتفورد » متباهيًا بثروتى - بعد الفقر الرهيب - وأشتريت فيها عقارًا .. و .. المهم هنا هو أننى أريد أن أوضح أننى كنت ريفيًّا حقا وفقيرًا حقا ، لكننى لم أقل الشعر والمسرح بالسليقة وحدها ، لقد تعبت من كثرة القراءة والاطلاع ..

قلت : إنك بذلك تختصر لنا مشوارًا طويلا من رحلتك .. لكن .. دعنا نلخص لك أهم الآراء التى اختلفت حولك أنت بالذات ..

- قل يافتى .. ماذا قالوا ؟

* بعضهم يرى أنك كنت أسطورة خيالية .. وأن « شكسبير » ربما كان ممثلا .. كان آخر دور مثلته فى حياته هو دور (الشبح) فى مسرحية « هاملت » ..

سألنى « شكسبير » : والرأى الآخر ..؟

قلت : خلاصته أنك كنت حقيقة مؤلفًا موهوبًا ، ومراجعنا فى ذلك كثيرة ، مثل : دفاتر الزواج فى كنيسة « ستراتفور » بلدتك ، وسجلات الغرامات والمخالفات ، والضرائب وعقود البيع والشراء ، ومنها تمكن الدارسون عبر العصور من وضع صورة تقريبية عن « شكسبير » وأسرته ، وعما حققته من نجاح ، وشراؤك لمنزل ثم عزبة .. ومشروع تجارى وقد فرضت عليك غرامة .. هل تذكرها ..

ضحك « شكسبير » .. وقال : (ضاحكًا) أذكرها جيدًا ، لأنها كانت أول دليل عملى على أنى ودعت حياة الفقر الشديد ، وصرت من الأثرياء .. آه .. لقد دفعت غرامة باهظة جدًّا لأننى قمت بتخزين القمح فى حظيرة جيادى ..

قلت : (ضاحكًا) لكنك نلت الكثير من المكافآت الملكية أيضًا .. هل تذكرها ؟

قال : على مدى اثنتى عشرة ليلة كاملة كنت مع زملائى نقدم عروضًا مسرحية فى البلاط الملكى احتفاءً بأعياد الميلاد ، وكنا نجزى بمبالغ ضخمة شأن أية فرقة مسرحية تجيد عملها .. هذا هو كل شىء .

* * *

سألت « شكسبير » : لنحاول الإلمام بفترة مجهولة من حياتك .. أعنى نشأتك الأولى .. ماذا تذكر منها الآن..؟

فقال : ولدت فى أبريل عام ١٥٦٤ فى مدينة « ستراتفورد » .. على نهر « أفون » فى مقاطعة واريكشير . وكان أبى من التجار الصاعدين فى تجارة الجلود والصوف والأخشاب كان أبى « جون شكسبير » رجلا طموحًا بحق .. كان يحلم بأن ينتخب ذات يوم عمدة لستراتفورد . وصار بالفعل رئيسًا لشيوخ البلدة ، أى (عمدة) لها ، وكان من مهام عمل العمدة ، أن يشاهد عروض الفرق المسرحية الجوالة ، وأن يكافئ المجيدين منهم ويمنحهم رخصة

لتقديم تمثيلياتهم بالمدينة .. ولهذا قدر لى أن أشهد فرق الممثلين الجائلين منذ طفولتى ، كما كانت أمى « مارى أردن » ، هى الابنة الصغرى لأحد الملاك الزراعيين ، وكانت تعلمنى اللغة اللاتينية والفنون ، لأنها كانت طموحة أيضًا .

* وكيف إذن صرت فقيرًا معدمًا .. وهاربًا من الذين يتهمونك بالسرقة و .. و ..؟

– حلت بأبى بعض النكبات ، وعذبتنى أحلامى فى أن أكون ممثلا ومؤلفًا ، وهجرت المدينة الريفية إلى العاصمة لندن و .. عشت حياتى .. بحلوها ومرها

* فى عام ١٥٨٢ ورد اسمك فى سجلات طالبى الزواج .. على عجل .. لماذا ؟

– لألحق مواسم الأعياد ، وقد تزوجت وأنا فى الثامنة عشرة من عمرى ، تزوجت الفاتنة « آن هانواى » ، ابنة مزارع معروف فى بلدتى ستراتفورد ، وكانت يتيمة الأبوين وتكبرنى بثمانية أعوام ، وبالمناسبة لم تكن ذات مال كثير ، فكل مادفعته لى عند زواجها هو مبلغ ستة جنيهات و١٣ شلنًا ، وقد أنجبت لى ابنتي « سوزانا » ، وأنا فى التاسعة عشرة من عمرى ، ثم أنجبت لى توءمين عام ١٥٨٥ هما « هامنت ، وجوديث » ، وفى عام ١٥٨٧ تركت زوجتى وأولادى لدى والدى فى ستراتفورد .. وهاجرت إلى لندن وراء طموحى ..

* * *

* لا شك أنك تذكر الآن أنك هبطت إلى لندن وأنت فى نحو الثالثة والعشرين من عمرك .

قال « شكسبير » : كان عهد « الياصبات » قد أثمر الكثير ، وكانت لندن تشهد نهضة مسرحية مدهشة وكانت الملكة « أليزابيث » الأولى تستعد لأن يكون عهدها فاتحة تاريخ طويل من الازدهار ، ثم التوسع فى تكوين الإمبراطورية البريطانية ..

* لقد قيل عن الإمبراطورية البريطانية بعد ذلك أنها لا تغرب عن أملاكها الشمس لكن الأيام دول ، كما تقول مسرحياتك نفسها .. غربت الشمس .. وبقيت أمجاد أخرى من بينها أنت « ياشكسبير » ، بمسرحك العظيم وأعمالك الخالدة ، « هاملت ، وعطيل ، والملك لير ، وماكبث » وغيرها كثير .

– لقد كتبت مسرحياتى فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، فى ذروة عصر النهضة .. فى إنجلترا .. لقد ولد المسرح الإليزابيثى) .. لكن .. أود أن أحكى لك شيئًا طريفًا ..

قلت : تفضل .. كلنا فى شوق إلى حكايات « شكسبير » .

قال : يوم وصلت إلى لندن .. بأحلامى ومسرحياتى .. كانت البوارج الأسبانية العملاقة تحاصر شواطئ جزيرة بريطانيا .. وتهدد بغزونا .. بعد أن تجرأت الملكة « أليزابيث » على تحدى أوامر « فيليب الثانى » ملك أسبانيا .. الذى غضب وهدد .. لأن رجال

البحرية الإنجليزية جزءوا وتعرضوا لسفن أسبانيا فى عرض البحار ..

قلت معتذرًا : تحكى لنا كتب التاريخ الكثير عن تنازع أسبانيا والبرتغال ، ثم بريطانيا على اقتسام بلاد العالم ونهب ثرواتها .. وهذا على العموم ليس موضوعنا .. فالوقت لن يتسع إلا لحديث سريع عن أهم مسرحياتك .. ياسيد « شكسبير » !

* * *

قال : فى عام ١٥٧٦ بنى « جيمس برباج » مكانًا للهو على غرار حدائق الدببة أسماها (المسرح) ، وبنى منافس له مسرحًا آخر أسماه (الستار) ، ثم أنشئوا المسرح (الوردة) عام ١٥٨٧ ، ومن هنا بدأ الازدهار المسرحى الذى بدأ كالعادة بحركة إحياء التراث والترجمة والاقتباسات ، وكان ألمع كتاب المسرح هو « كريستوفر مارلو » الذى طوع الأشعار للأغراض المسرحية ، ومنه تعلمت الكثير فى هذا الشأن .

* لعل أغلبية القراء يعرفون الكثير عن مسرحياتك (روميو وجوليت ، وعطيل ، وهاملت وغيرها) ، لكننا لا نعرف كيف كانت صورة المسرح على أيامك ..

قال « شكسبير » : كان مسرحًا مفتوح السقف يعتمد على ضوء النهار ، وعلى خيال الجمهور عند تقديم المناظر الليلية ، وكان العرض يبدأ فى الساعة الثانية أو الثالثة بعد الظهر .. ومن هذا

كثرت شكاوى أصحاب المتاجر والحرف لتعلق صبيانهم وعمالهم بالفرجة على المسرح .

وكان التمثيل يدور على منصة عالية ، يحيط بها النظارة من ثلاث جهات أو كانوا يحيطون بالممثلين من كل الجهات .. وهذا يعنى أنه لم يكن بالمسرح أى فاصل وهمى أو حقيقى ، بين الناس والمسرحية وأحداثها وممثليها ، وكان الجمهور فى المقدمة يجلسون على الأرض ، أما جمهور الصالة فيشاهدون العروض وقوفًا ، وكان المسرح يخاطب كل الأذواق .. وكان الممثلون يخشون إغضاب جمهور الأرض وإلى هذه الجماهير - الجالسة أرضًا - يرجع إنقاذ المسرح والدراما عمومًا من الجمود الأكاديمى .. وألغاز اللغات القديمة .. ويرجع أيضًا إلى ذوق الجمهور حرص الكتاب والممثلين على الاتجاه الترفيهى وخاصة الترفيه الراقى مع نقد للحياة والمجتمع .

* * *

قلت له : كان « شكسبير » يكتب لمسارح تعرض نهارًا . وخالية من الإضاءة والديكور والستائر ، ومن كل الحيل المسرحية المعروفة حاليًا ، ومع ذلك ، ظل إلى الآن ، هو « شكسبير » ألمع كتاب المسرح عبر العصور ، بسبب بسيط جدًا ، هو كما يقول « توماس كارلايل » فى كتابه الابطال :

« كان « شكسبير » مؤمنا بعظمة الله فى سعة السماء والأرضين ، وكان شاعرًا ذا عقل مفكر خلاق ، وكان يملك المقدرة على أن يمد

بصيرته لجميع أصناف الرجال من : « هاملت ، إلى عطيل ، إلى روميو ، إلى فولستاف » .. ليصورهم فى أكمل خلقهم وصفاتهم ونواقصهم البشرية ، وكان يعبر عن مختلف نوازع الإنسان من حب ، وشجاعة ، وضعف ، وغيرة ، وقوة بأس ، وشفافية وإيمان قوى » ..

وهذا صحيح .. طبعًا .. من منا لم يسمع عن « هاملت ، وماكبث ، وعطيل ، والملك لير ، وروميو وجوليت ، وأنطونيو وكليوباترة » وغيرها من روائع « وليم شكسبير » .. من منا لم يقرأ بعضها مرة فى كتاب ، أو رأى بعضها مرة على المسرح ، أو شاهد بعضها مرة على شاشة السينما ؟.. أكرر لك أن روائعك مازالت تعيش معنا إلى اليوم ..

قال « شكسبير » فى تواضع : وهذا فى حد ذاته أكبر شرف يحلم به أى فنان أو أديب .. أن تظل كلمته تتردد من بعده وتجد أصداء فى قول الناس ووجدانهم فى الأجيال المتعاقبة ..

قلت : لقد قال النقاد المعاصرون لنا الكثير فى هذه النقطة .. وحاولوا أن يفسروا سر بقاء روائعك وخلودها .. لكننا نحب أن نعرف تفسيرك أنت ..

قال : إن الكاتب يكتب كلمته وحسب ، ويفضل أن يترك الحكم عليها للناس ، ومع ذلك ، فإذا كنتم مصرين على أن أقول رأيى فى هذه النقطة .. فإننى أتصور أن السبب هو أننى حاولت أن

أكتب عن الإنسان وللإنسان ..

* بمعنى ؟

- بمعنى أن أختار موضوعات إنسانية .. تبقى ما بقى الإنسان .. قد تتغير الظروف والملابسات من عصر إلى عصر .. لكن تبقى النوازع الإنسانية فى جوهرها هى هى لاتتغير .. (الغيرة والشك) فى « عطيل » ، (الطموح المدمر) فى « ماكبث » ، (علاقة الأبناء بالآباء) فى « الملك لير » ، (الحب وصراعه مع الحقد والكراهية) فى « روميو وجولييت » وهكذا .

قلت : عظيم .. لكن المسألة لاتتوقف على الموضوع وحده .. فمسرحياتك من حيث الشكل الفنى ومستوى الشعر الذى كتبت به .. مازال يستوقف النقاد والناس كمدرسة يقاس عليها ..

- معك حق .. فى مجال الشكل الفنى قد يكون هناك إسهام متميز أضفت به إلى ما كان سائدًا حولى فى عصر النهضة ..

* كانت سِمَةُ عصر النهضة .. أن يُرجع إلى أصول التراث الإغريقى فى كل شيء ويحاول إحياءها من جديد ..

- أما أنا فقد حاولت أن أضيف ..

* كيف ؟

- خرجت مثلا على الوحدات المعروفة التى نادى بها « أرسطو » .. وهى وحدة الحدث ، ووحدة المكان ، ووحدة الزمان ..

سألته : هل يمكن أن نتوقف أمام بعض الأمثلة ؟

قال : الزمن فى « روميو وجولييت » خمسة أيام وليس يومًا واحدًا .. والزمن فى « عطيل » يكاد يصل إلى شهرين ..

المكان أيضًا تنوع عندى وتعدد .. لدرجة أن الأحداث فى « أنطونيو وكليوباترا » تنقل بين روما والإسكندرية أكثر من عشر مرات .. حتى أتيح للخيال المتفرج أن يلم بما يجرى فى المدينتين فى وقت واحد ..

قلت : إنه شكل أقرب إلى حركة كاميرات السينما فى عصرنا ..

قال : بالنسبة لوحدة الحدث .. فقد قدمت إلى جانب الموضوع الرئيسى .. أو الصراع الأساسى خيوطًا فرعية .. لكنها ليست غريبة عنه أو مقتحمة عليه .. وإنما هى منسوجة بإحكام .. بحيث تدعم الموضوع الأساسى وتؤكده وتقويه « هاملت » مثلا فيها الموضوع الأساسى المتمثل فى أزمة « هاملت » بين الثأر لأبيه ، وعلاقته بأمه الخاطئة لكن إلى جانبها قصة « بولينوس وابنه لابرتيس » ، وقصة « فورنتيراس » ، إذا نظرنا إلى هذه الخيوط الفرعية نظرة سطحية .. فإننا يمكن أن نعتبرها زائدة .. أما إذا نظرنا إليها باعتبار أن موضوع المسرحية يعالج بشكل عام علاقة الابن بالأب وموقف الإنسان من الموت .. فإن الحبكات الإضافية تأخذ مكانها فورًا فى الشكل النهائى للمأساة ..

سألت « شكسبير » : وماذا كان موقف معاصريك من هذا

التجديد فى الوحدات الثلاث الحدث ، والمكان ، والزمان ، هل رحبوا بها ؟

قال : بعضهم قلدنى ، وبعضهم ظل محافظًا على القديم ، بل اعتبرنى خارجًا على القواعد والمألوف والذوق السليم .

- لكن العصور التالية وبالذات فى قرننا العشرين ، أعادت تصحيح الصورة ، واعتبرك النقاد من الرواد الذين أضافوا للمسرح فى عهد النهضة الكثير من الابتكارات الفنية النابعة من الإبداع والإلهام ..

- إنه لما يثلج صدرى ، أن أرى عصركم يتأمل ماخلفته من تراث بهذا العمق وبهذا الاهتمام إن الكاتب يكتب أحيانًا أعماله ، ويحاول أن يقول من خلالها شيئًا ثم يفاجأ بأن النقاد قد اكتشفوا فى أعماله أعماقًا جديدة أو أشكالا وابتكارات فنية جديدة ، إن الكاتب وهو يفرز أدبه يكون صادقًا مع نفسه ، ويحاول أن يعبر عما يحس به .. أقصد أنه لا يتعمد ولا يفتعل شيئًا .

قلت : هذه هى لمسة الموهبة والإلهام التى يمنحها الله للأديب .. فإذا به يبدع ويجدد .. وعلى النقاد أن ينقبوا ويحللوا ويلقوا الضوء على نتاج هذا الإبداع ، مثلا ، اسمح لى أن أضيف إلى ما أشرت إليه عن ابتكارك فى الوحدات الثلاث التى نادى بها « أرسطو » أسلوبك المبتكر فى رسم الشخصيات .

سألنى : ماذا تقصدين ؟!

قلت : شخصياتك مكتملة ناضجة ، يدور الصراع فى داخلها ، أو تنبع عناصر الصراع من داخلها ، إلى جانب صراعها مع غيرها من الشخصيات أو ما حولها من الظروف والأحداث .

قال : يبدو أن هذا صحيح ، فأنا أتذكر أن السمة السائدة فى المسرح الإغريقى كانت الصراع مع قوى خارجية ، كالقدر وغيره ، أما عندى فقد جعلت كل شخصية تحمل بذور سقوطها المأساوى ، أو تحمل قدرها فى داخلها ..

* « ماكبث » مثلا ، لم يكن لينصاع لتحريض زوجته ليقفز على الملك بالغدر ، لو لم يكن فى داخله نقطة الضعف التى تجعله مدفوعًا بطموح جامح ، « وعطيل » لم يكن لينصاع لدسائس « ياجو » ويفتح أذنيه للشكوك التى صبها فيها حول إخلاص زوجته له لو لم يكن بطبيعته ميالا للشك والغيرة .. أليس كذلك ؟

- معك حق ، إننى سعيد بهذا الذى أسمعه منكم ، فهو يؤكد مسئولية أى أديب أو فنان لا حيال جيله فحسب .. وإنما حيال الأجيال اللاحقة ..

قلت : لكى نختتم الحديث عن مظاهر التجديد فى مسرح « شكسبير » ، اسمح لى ياسيدى أن أسألك عن التداخل الذى أحدثته بين التراجيديا والكوميديا .

قال « شكسبير » : (باسما) آه ، تقصد البسمات التى كنت أحاول نثرها داخل المآسى ؟

* ودور المهرج الذى يكاد يطل فى معظم مسرحياتك .

– لقد كان هناك فصل كامل فى المسرح الإغريقى بين المأساة والملهاة ، لكننى حاولت فى مسرحياتى أن أريح نفس المتفرج وهو فى قمة المأساة ببسمة ، تؤكد بدورها المغزى الأساسى وتعمقه .

* أود أن أسألك الآن عن أسلوب الأديب فى معالجة التاريخ أحداثه وشخصياته ، لقد أخذت بعض موضوعات مسرحياتك من التاريخ ، فماذا أضفت إلى التاريخ ؟

– هناك فارق أساسى بين المؤرخ والأديب ، المؤرخ يحاول أن يرصد بأمانة أحداث التاريخ ، ويستوثق من صحتها بالوثائق والأدلة والبراهين ، أما الأديب فهو يتجاوز الأحداث إلى مغزاها الانسانى ، ويتجاوز سلوك الشخصيات التاريخية ليتعمق فى البواعث التى أملت هذا السلوك . إنه يتوقف باختصار أمام الإنسان ، داخل هذه الشخصيات .

* عظيم ، لقد شغلنا تراثك العظيم ونحن معذورون فى ذلك ، فهو مابقى لنا منك حتى الآن ، لكتنا نود فى الدقائق الباقية من لقائنا ، أن نتعرف على عصرك ، نتعرف على الظروف التى كتبت فيها روائعك .

قال : عندما نزحت إلى لندن فى عام ١٥٨٧ ، كانت هناك بواكير نهضة أدبية ، فقد نزل أدباء الجامعة إلى ميدان التأليف المسرحى ، ظهرت (مسرحية تيمور لنك العظيم) « لكريستوفر

مارلو » ، وكانت تمثل فتحًا جديدًا فى (المسرح الإليزابيثى) ، إلى جانب « مارلو » ، كان هناك « توماس كيد » وغيره ، يستلهمون التراث الكلاسيكى .

قلت : كان هذا يمثل قفزة فعلا إذا قورن بما كان سائدًا قبلها من وسائل الترفيه المتمثلة فى حدائق الدببة ، أو الفرق المسرحية المنتشرة فى قصور الأمراء، أو التى تجوب الأقاليم، وتقدم أدبًا مسرحيًّا خليطًا من المسرح الأخلاقى الموروث من العصور الوسطى ، أو المترجمات عن اللاتينية .

- هو ذاك ..

* ودخلت أنت الحلبة ، وكان إنتاجك طفرة واسعة (للمسرح الإليزابيثى) ، هل تعرف أن النقاد الآن يقسمون إنتاجك إلى أربع مراحل زمنية ؟

قال « شكسبير » بلهفة :حقًا ؟ يسعدنى أن أسمع منك هذه المراحل .

قلت : المسرحيات المبكرة ومعظمها مسرحيات تاريخية ، فيما عدا « هنرى الثامن » وعدد كبير من الكوميديات .

- والثانية ؟

- عند افتتاح (مسرح جلوب عام) ١٥٩٩ الذى بنيته أنت وشركاؤك ، وقدمت عليه (يوليوس قيصر ، وهاملت ، وكما تحب ، والليلة الثانية عشرة وغيرها) .

سألني : والثالثة ؟

* مرحلة الذروة كما يسميها النقاد ، وهى التى كتبت فيها : « عطيل » والملك لير وأنطونيو وكليوباترا .

- والرابعة ؟

* وهى مرحلة الختام : وفيها كتبت مسرحيات يشيع فيها الرمز والغموض ، وختمتها بمسرحية العاصفة ، التى ضمنتها رؤياك للعالم والإنسان ..

قال « شكسبير » : أود أن أعرف منك شيئًا آخر .

* تفضل ..

- ماذا حدث للمسرح الانجليزى بعد وفاتى فى أبريل عام ١٦١٦؟

* لم يمض ربع قرن على وفاتك حتى حلت به أكبر كارثة فى تاريخه وحين أغلقت المسارح فى عهد « كرومويل » .

قال الرجل : يا للأسف ..

قلت : لكن المسرح عاد إلى مكانه مرة أخرى فى المجتمع ، بعد زوال عهد « كرومويل » فى عام ١٦٦٠ .. وأخذت العصور تتناقل تراثك جيلا بعد جيل بالإعزاز والإكبار حتى الآن .

ابتسم « شكسبير » وقال : إن هذا خير وسام يضعه أى فنان على صدره !

برتراند راسل

* ونلتقى الآن مع مفكر إنجليزى عالمى شهير استطاع أن يلخص حياته فى ثلاث كلمات هى : الحب والحقيقة والرحمة .. مضيفنا الكبير .. هل تتفضل بتقديم نفسك ؟

قال : اسمى « برتراند راسل » ، من مواليد لندن يوم ١٨ مايو سنة ١٨٧٢ . (يضحك) ورحلت يوم ٣ فبراير ١٩٧٠ .

(شاركته الضحك) هل لى أن أعرف ماأضحك فيلسوفنا « راسل » ؟

قال : إنه خطاب طريف جدًّا ، عثرت عليه فى أوراق أمى ، تصور ياولدى ، إنها كتبت إلى جدتى – يوم مولدى تقول لها . إن « برتراند رسل » مولودٌ دميمٌ جدا ، وزنه ثَمانية أرطال

ونصفَ الرطل ، سمين جدا ، طولهُ إحدى وعشرون بوصة . عيناهُ زرقاوانِ متباعِدَتان ، ذَقنهُ صغير ، ويرفعُ رأسَه ويحركُ عنقَهُ بحيويةٍ مُدْهِشَة ، لا يكُف عَنْ الصراخِ والبكاء ، إنه مزعجُ جدا .

قلت : إنها دعابة ولاشك من والدتك . ولكن من المؤكد أنها كانت تحيطك بالحب والرعاية ، وأنها أثرت فى حياتك تأثيرًا عميقًا . لقد ذكرت فى كتاباتك أنك تعلمت الكثير من أمك .

قال : هذا صحيح تمامًا ، ففى حياتى التى امتدت إلى ٩٧ سنة ، وفى كتابى الضخم (حياتى بقلمى) قلت أننى مدين بنجاحى فى فلسفتى وأفكارى للسيدة أمى . فقد كانت صريحة . جريئة . يكفى أنها كانت قادرة على أن تجرد نفسها من عاطفة الأمومة لتصفنى بأننى مولود دميم جدًا .

* نعرف من مطالعة قصة حياتك ، أن بذورك الفكرية والفلسفية ، نبتت فى الصالون الأدبى الذى دأبت والدتك على إقامته فى بيتها ، فهل تعطينا فكرة موجزة عن هذا الصالون المنزلى ، وعن أثره فى الحياة الاجتماعية والثقافية للمجتمع ؟

– معك حق ، إننى أتمنى أن يكون فى كل بيت فى العالم صالون أدب وفن وفكر ، وأن يهتم رجل البيت أو ربة البيت بإنشاء مكتبة صغيرة داخل المنزل وأن يستضيفوا أصدقاءهم وبعض نجوم الأدب والفن لقضاء سهرات مفيدة فى المناقشات الخصبة البناءة . وأذكر أن

خالتي أيضًا كان لها صالون فني . ويمكن القول أن الأدباء والفلاسفة كانوا يلتقون فى صالون أمى الأدبي ، كما كان الرسامون يلتقون فى صالون خالتى ، ولك أن تتصور معى حجم الفائدة التى استفدتها من مناقشات هذه الشخصيات .

سألته : عُرف عنك الاهتمام بالجانب الأخلاقى للحياة والتاريخ فهل نعرف السبب فى ذلك ؟

قال : « راسل » لاحظت على مدى الـ ٩٧ سنة التي عشتها ، أن العالم يحكمه نوعان من المبادئ مبادئ تنصح بها ولا نمارسها نحن البشر ، ومبادئ نمارسها ولا ننصح بها ، ولهذا حرصت على إثبات أن سعادة البشرية ستتحقق فقط فى ظل السلوك الأخلاقى السليم الذى ينبع من عقولنا وضمائرنا – فأنا مثلا – لا أفعل إلا مايقول به عقلى ، وما يمليه على ضميرى ، مهما كانت النتائج .

* لعل هذه القيم الأخلاقية هى التى دفعتك إلى أن تتزعم الدعوة للسلام فى العالم كله .

– نعم ، لقد تأملت الحروب وماتحدثه من دمار شامل ، ومايننتج عنها من كوارث ومآسى ، تأملت مايمكن أن يفعله الإنسان بأخيه الإنسان حين تسود شريعة القوة والعدوان ، وقد مرت بالعالم فى حياتى حربان عالميتان مدمرتان ، ومئات الحروب الصغيرة ، وكان واجبى الفكرى يحتم على أن أحذر ، وأن أدعو ، وأقول للجميع

دعونا نجرب وسائل أخرى للحياة ، دعونا نحاول أن نعيش فى سلام .

* لكن كيف تصل البشرية إلى مرفأ السلام ؟

- بالحب والرغبة فى المعرفة ، والعطف على المعذبين ، إن هذه القوى الثلاث توجد بداخل كل إنسان منا ، لكن المأساة أن العواصف الجامحة الشريرة تعصف بها ، وتقودها داخل دروب ملتوية ، إن هذه القيم تكمن فى داخلنا جميعًا وعلينا أن نعود إليها ونستهدف بها فى سلوكنا .

* لك مؤلفات عديدة عن الحب ، وعن السعادة وعن المعرفة ، ومؤلفات أخرى فى الرياضيات والعلوم ، لكن الوقت فى هذه العجالة لن يسمح بحديث عن كل منها فما الذى تحب أن نتوقف عنده الآن .

قال « راسل » : الحب ، هو الذى ينتشلنا من العزلة ، إننى أرتجف من العزلة ، ولذلك فإن الحب الحقيقى ، الحب الشامل الذى يشمل جميع إخوتنا فى الإنسانية هو الذى يفتح أمامنا عالمًا صوفيًّا رائعًا كالذى عاشه الأنبياء ..

* يقولون إن إصرارك على الدعوة للسلام والحب ، جعلا فلسفتك أقرب إلى الأحلام الوردية غير الواقعية فى عالم قد تسلح حتى الأسنان .

قال « راسل » : (مقاطعًا) ، لقد قرأت مثل هذا التفسير العجيب ، وكان ردى ، هو أن الحب والمعرفة يرفعان الإنسان إلى السماء ، إلى آفاق السمو والنبل ، وتمنحه شفافية تجعله يسمع صدى الصرخات المعذبة تتردد فى قلبه . حيث بكاء الأطفال الجياع وأنين الضحايا تمزق أعصابه فيعطى جهده كله لتخفيف هذه الآلام ، وتوفير مناخ السلام للإنسانية .

قلت : هل نستطيع أن نقول إن خلاصة فلسفتك يمكن إيجازها فى كلمة واحدة ، هى : الرحمة ، الرحمة !!

ابتسم راسل وقال : ياله من تعبير موجز ، نعم ياولدى ، نعم ، الرحمة الإنسانية ، إننا نحن البشر فى أشد الحاجة إلى أن تمارس هذا السلوك الإنسانى النبيل ، تأمل معى كل هذا العذاب من حولنا فى كل أنحاء العالم ، ألا يحرك طاقاتنا جميعًا لكى نتعاون ونحاول أن نمسح دموع المعذبين ؟ إن كل هذه الكوارث تهز قلبى وتزلزل كيانى ، ولقد حاولت جهدى أن أخفف بعض الألم ولم أستطع فتعذبت أكثر .

قلت : للأسف يا أستاذ « برتراند راسل » ، فإن أحدًا بمفرده لايستطيع أن يفعل كل شيء ، لكن المؤكد أن مؤلفاتك تنمو فى نفوس قرائك الكثيرين ، ولعل لقاءنا العاجل هذا معك هو أحد ثمار دعوتك للسلام والمحبة .

فقال « راسل » : هذا حلم العمر لكل مفكر ، أن يترك أثرًا ما فى وجدان زمانه ، أو عصره .

* وما هى الفكرة وراء إنشائك مدرسة خاصة عام ١٩٢٧ لتربية الأطفال ؟

– لقد رأيت أنه لاتوجد سياسة ناجحة ، إلا إذا صحت قواعد تربية الطفل فى المدرسة ، وفى الأسرة ، وفى المجتمع ، وقد كتبت كتابًا عن تربية الأطفال حقق نجاحًا جماهيريًا مدهشًا ، قلت فى هذا الكتاب : إن عند الآباء شعورًا بالمسئولية قد يصل فى بعض الأحيان إلى حد الأنانية .

* هذا أمر طبيعى ، لأن كل أب يريد أن ينجح ابنه فيما فشل هو فيه .

– هذا صحيح ، وأنا أضيف إلى قولك أن الآباء يرون فى أبنائهم نوعًا من الاستمرار لهم ولحياتهم ، أو نوعًا من استدراك مافات أو تصحيح أخطاء الآباء ، لكن بعض الآباء يبالغون فى القسوة على أولادهم ، ويطالبونهم بما قد لايكون فى طاقتهم أحيانًا ، أو ربما لا يتوافق مع استعدادهم وميولهم أحيانًا أخرى ، وهنا وجه الخطأ .

* وماهو الصواب ؟

– لا بأس من الشدة فى تنشئة الصغار على مبادئ الأخلاق ، وعلى حب السلام وكراهية العدوان والحقد ، لكن دعوهم بعد ذلك

لينجحوا فى حياتهم بالأسلوب الذى يناسبهم ، يكفى جدًا أن يطمئن الأب على سلامة البذور ، ولاداعى لاستعجال الثمار .

قلت : يبدو أن الطفل يحتل مكانة كبيرة عندك .. ونحن معك فهو رجل المستقبل !

قال راسل : لايمكن أن ينهض أى شعب إلا إذا أعد الأمل لأطفاله ، فالأمل ، وليس الخوف هو الذى يؤدى إلى الإبداع ، والآمال الكبيرة تجعل من أطفال اليوم ، صناع سلام ومحبة ووئام فى الغد القريب والبعيد .

عبد الله النديم

نحن الآن ضيوف على أديب ، كان من الصعب عليه استضافة أحد فى زمانه ، لأنه لم يكن ذا بيت مستقر ، وإنما عاش كثير الترحال وسريع التنقل ، إنه « عبد الله النديم » .

قال : أهلا بكم على أىّ حال ، ولعل الحال غيرُ الحالِ فى زمانِكم ، كم سنة بينى وبينكم الآن ؟

قلت : المسافة بين زمانك وزماننا هى حوالى مائة عام ..و

قال : أخبرنى جزاك الله خيرا ماذا قالوا عنى ، بعد رحيلى ؟

* قالوا عنك ، إنك (خطيب الشرق ، ومحامى الوطن) ، وأطلقوا على مجالسك الخطابية .. سوق عكاظ .. ومعرض باريس .

قال : « النديم » فى تواضع : جزاهمُ الله كل خير ، فما حلمت

بهذا التكريم ، لكن ، خبرنى برأى « جمال الدين الأفغانى » ، فهو أستاذٌ كبير ، ويُهمنى رأيهُ فى أعمالى المتواضعة ماذا قال ؟

* قال عنك « جمال الدين الأفغانى » كل خير ، بل أحسن فى تقديمك للأجيال اللاحقة وهذا هو نص كلماته :

- « ما رأيت مثل « النديم » طَوالَ حياتى فى توقدِ الذهن ، وصفاء القريحة ، وشدّة المعارضة ، ووضوح الدليل ، ووضع الألفاظ وضعًا محكمًا بإزاء المعانى إنْ هُوَ خَطَبَ أو كَتب » .

- جزاهُ الله عنى خيرًا .

* وهل تذكر العلامة « أحمد تيمور» ؟

- كنت متقدمًا فى السن يوم كان هو يشب عن الطوق ويتجه إلى التحقيق الأدبى فى بُحور التراث الإسلامى ، لكن خبرنى ماذا قال عنى ، فإنه مدقق منقب كما أذكر ؟

* قال عنك العالم المحقق « أحمد تيمور » ، شيئًا محببًا ولطيفًا .. ونص كلامه هو .

- « لقيت « النديم » مرة، فرأيت رجلا فى ذكاء « إياس » ، وفصاحة « سحبان » ، وقبح « الجاحظ » .

- وماذا عن أشعارى ؟ ألم يقلْ شيئًا عنها ؟

قلت : لقد قال : أما شعر « النديم » فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه هو الغاية القصوى فى عصرنا هذا .

ابتسم « النديم » وسألنى : عظيم ، والآن ماذا عندك لى؟ لماذا

تجشمت عناء العودة إلى عصرى الصاخب .. المضطرب .
قلت له : أردت أنِ أستوضحك بعضِ الأمور .
– تفضل ، سل عما تشاء .
* كنت – على ما أعرف – من المراجع والأبحاث ، رجلا عصاميًا ، فالدكتور « على الحديدى » فى كتاب ضخم عنك قال :
– كان النديم عصاميًا فى حياته وثقافته ، فلم يرث الجاه عن أبيه « مصباح » الخباز ، بل خرج من بين أنياب الفقر والفاقة لِيخلُدَ اسمُه بين العظماء المصلحين ، والأبطال الثائرين » .
* وسؤالى هو : كيف على عهدك الذى كان يُعانى بأسى من التخلف – كيف تيسر لك كشاب طموح ، أن تصنع ثقافتك وعلمك وتكون إنسانًا مفيدًا لوطنك العربى عامة والمصرى خاصة ؟
– كلمة واحدة « القراءة » ، مالك دَهِشْت هكذا ؟ يبدو أنك قادم من زمانٍ غريب ندرت فيه القراءة ، وتضاءلت فيه هواية الاطلاع ، والبحث والتنقيب .
* هذا صحيح إلى حد كبير لقد قل الاهتمام بالكتاب والتثقيفِ الذاتى ، وشغل الناس بأشياء كثيرة من هموم دنياهم ، وتشتت انتباههم ظهور أجهزة فنية وإعلامية كثيرة كالراديو والتليفزيون .. إلخ ، لكن لن أثقل عليك ، دعنا نتعرف على برنامج تثقيف نفسك ، على أن يستفيد منه شبابنا ، ويعود الكتابَ إلى سابق مكانته فى حياتنا .

- إذن سجل عنى ، لقد آخذت عن العلماء ، وجالست الأدباء ، وخالطتِ الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البلاد ، وامتزجتُ برجال الصناعة والفلاحين والمهن الصغيرة ، وأدركتُ ماهم فيه من جُهالة ، ومم يتألمون .. وماذا يَرْجُونْ ..

* إذن لم تكن المسألة مسألة قراءة فقط ، وإنما كانت معايشة كاملة للعصر .

- إلى جانب القراءةِ عايشت عصرى ، بل خالطت كثيرًا من متفرنجة الشرقيين وأَلْمَمْتُ بما انطبع فى صُدورهم من تأثيراتِ الغربيين .

* لست إذن ضد الإفادة من الثقافات الأجنبية ؟

- أهذا سؤال ، يا ولدى ؟ ..

قلت بسرعة : أقصد ، أنك كنت ساخطًا أشد السخط على الأجانب ، وتغلغل نفوذهم على حساب أهل الوطن .

قال « النديم » : نَهبُ ثَرَواتِ الأمة .. أنا ضِده ، أما الاستفادَةَ بخِبراتِ وثقافاتِ واختراعات الغرب فهى تُفيدنا فى ملاحقة التطور ، والخلاصِ من التخلف الذى عَزَلَنا عن ركِب الحضارة ، ولهذا تجدنى امتزجت بلفيف منِ الأجناس المتباينة ، واشتغلت بقراءة الأديان على اختلافها ، والحكمةِ والتاريخِ والأُدب ، وتعلقت بالصحافة مدة ، ولهذا أصدرت جريدة « اللطائف » . وبجلة « التنكيت والتبكيت » ، أيضًا .

قلت : نعود إلى نقطة البداية .

قال : لعلك تقصد منذ مولدى ؟ حسنًا .. كل ما أذكره الآن أننى ولدت فى يوم عيد الأضحى المبارك عام ١٢٦١ هجرية ، الموافق ١٨٤٥ ميلادية ، بمدينة الإسكندرية ، وأبى هو « عبد الله بن مصباح ابن إبراهيم الإدريسى » الشهير « بالنديم » .

قلت : فى سن بداية الوعى ، انطبع فى ذهنك عدة صور للإسكندرية .

قال « النديم »: أذكر أنه كان بين الإسكندرية والقاهرة وقتذاك تنافس شديد ، فعلى حين كانت القاهرة تختص بالنشاط السياسى ، فإن الإسكندرية كانت تحوز قصب السبق فى التجارة والصناعة وشئون المال والبورصه ، مما استقدم إليها كثيرًا من المصريين والأجانب المهاجرين ، أذكر أيضًا أنه أقيم بالإسكندرية دار صناعة الترسانة ، تضارع مثيلاتها فى الدول الأوربية ، وأذكر أن هذه الترسانة أقيمت لتبنى لمصر أسطولا جديدًا ملأ البحر المتوسط تجارة وحروبًا أيضًا ، ولن أنسى معاناة أبى « مصباح » الخباز ، مثل غيره ، لأن « محمد على باشا » ، جمع لهذه الترسانة منهم ثمانية آلاف من الصبيان ليعملوا عُنوة فيها ، مع أن المسألة يمكن أن تؤخذ بهوادة .

قلت : أذكر مما قرأت عن هذه الفترة ، إنه جمع الأذكياء والمهرة من الصبيان ، ليتعلموا صناعة السفن .

قال : طبعًا ، كان منهم والدى كما قلت لك ، جاءوا به من قرية

« الطيبة » من مديرية الشرقية بعد عام ١٢٣٤ هجرية وهو عام مولده ، وحاولوا تعليمه صناعة التجارة بالترسانة .. وظل بها عاملا حتى أصدر الباب العالى التركى فرمانه الشهير عام ١٨٤١ ميلادية ..

قلت له : نعود إلى مجلتك التى حفلت بالنقد اللاذع ، وذاع صيتها .

– أصدرت مجلة « التنكيت والتبكيت » ، « والأستاذ » ، أيضًا ، وكان الناس ينتظرون هذه المجلات بشوق ، حتى أن أحدهم رحب بظهور « مجلة الأستاذ » بهذه المقطوعة الزجلية .

ياسى « نديم » فى غاية الشوق

لـرؤيـتـك يـا نـور الـعـين

عـشـر سنين وأنـت غـايـب

ويـوم بـعـادك كـان بـسـنين

وذوق كـلامـك أوحـشـنـا

يـاحـضـرة الـشـهـم الـفـاضـل

قلت : إن هذا الزجل يجعلنا نتوقف أمام زجلك أنت ، يقال إن النديم الزجال مدين لفن الأدباتية بمولده ؟

قال : هذا صحيح ، فأنا مدين بالكثير لفن الأدباتية .

* نعرف أولا ، من هم الأدباتية ؟

– الأدباتية طائفة من الزجالين ، يقولون أزجالهم على السليقة ،

يستخدمون فنهم وطلاقة ألسنتهم وحضور البديهة لديهم ، فى التكسب والارتزاق ، وكان يُعرف عنهم إلى جانب ذلك - خفة الظل - فإذا سألوا أحدًا ، وردهم أخذوا آخر كلامه على البديهة وصاغوا منه زجلا فكهًا ، يكشف عن مقدرتهم فى الإلحاح ، فيعطيهم ، وكانوا يضيفون إلى ظُرفهم ملابس متميزة ومضحكة ، وكلمة الأدباتية جمع أدباتى وهو لفظ ساخر مشتق من كلمة « أديب » ، وذلك للتفرقة تماما بين الأدباتية والأدباء ، ويكثر وجودهم عادة فى الموالد وليالى الحصاد .

* كيف كان تعرفك بهؤلاء الأدباتية ، وكيف كان ذلك مدخلا لقولك الزجل ونبوغك فيه ، حتى أنك أصبحت إمامًا لهذا الفن ؟

- إن لهذا قصة طريفة حدثت عام ١٨٧٧ ، وكتبتها بعد ذلك فى مجلة « الأستاذ » .

* هل نطمع فى أن تستعيد معنا هذه القصة الطريفة ؟

- كنت أجلس أنا وصديق لى على أحد المقاهى فى طنطا فى ليلة من ليالى مولد السيد أحمد البدوى ، ومر علينا اثنان من الأدباتية أخذا يوجهان إلينا الزجل بإلحاح شديد ومثير ، فقال أحدهما :

أنعم بقرشك ياجندى
وإلا أكسبنا أمال يافندى
إلا أنا وحياتك عندى
بقالى شهرين وأنا جوعان

وأضاف «النديم» وبدلا من أن أعطيه قلت له على سبيل المزاح:

أمـا الـفـلـوس أنـا مَـدِّيـش
وانـت تقـوللـى مــا مـمشِيـش
يـطلـعْ عـلـىَّ الـمـنـاويـشـى
أقــوم أمــلّص لــكْ الــوِدَانْ

قلت متضاحكًا: لابد أنه انصرف أن

- ويبدو أنه ظنَّنى أدباتيا منافسًا له، فقنع من الغنيمة بالفرار، لكنَّ هذه الحادثَة هى التى أدَّت إلى المباراةِ الزجلية الحامية التى حشدوا لى فيها كلَّ الأدباتيةِ المشهورين فى عصرى لكن أنازِلهم.

* وأين كانت هذه الموقعة؟

- فى أغربِ مكان، فى الشارع وعلى ملأ من الناس، فقد شَهدها مئات الحاضرين فى مَوْلد السيد البدوى.

* ومن الذى نظم هذه المباراة الزجلية؟

- الحكايةُ أن المرحومَ «شاهين باشا» عندما سمع بقصتى مع الأدباتى على المقهى، جمَعَ أمهرَ الأدباتية، ووعدَهم إنْ غلبونى أن يُعطَيهم جائزة قيمة، وأنذرَهم إن غلبتُهم بأن يضربَ كلًّا منهم علقة، وقد استمرت هذه المناظرة ثلاثَ ساعات، وذاع صيتها فى كل البلاد وتناقلَ الناسُ ما قِيلَ من أزجال، وكان من الشروط الطريفة فى هذه المباراة أن من تنحنح أو بلع ريقه أو سكت لحظة بعد فراغ

صاحبهُ عُدَّ مغلوبًا وللعلم لم يحدث منى أى شىء من ذلك..

* هل تذكر شيئاً من أزجال تلك المباراة الشهيرة ؟.

- أذكر أن أحدَ الأدباتية.. قال يتحدانى :

القصد منك يا «نديمنا»
تعمل زجل هيله بيله
إلا أنت دلوقت غريمنا
مقصدى أحدفك بالقلقيله
وإن كنت تجهل تقديمنا
أسأل عننا
أوعى تعيب فى تكليمنا
واحذر مننا
أحسن أوديك لعظيمنا
يشيلك ألفين شيله

* وماذا كان ردك على هذا التحدى ؟

- قلتُ له :

أنتَ صغار لسه نونو
وفى الزجل منتاش مجدع
اتبع «نديم» تلقى فنونو
تأتيك من المعنى الأبدع

أمـا عـظيـمــك وجـنـونـو
يـــأكـــل نـــفـــســـه
وإن كـان يـعـارض بمْجـونـو
يُـــطـــلـــب عـــكـــســـه
لأن فـــنـــى وشـــجـــونـــو
لـكـل مـتـعـنـطـظ بـــردع

قلت: جميل ، لكن دعنا يا سيدى نتجول بسرعة فى بعض جوانب حياتك المليئة بالأحداث والترحال فى ربوع مصر ، ولنعبر مسافات الزمن لنصل إلى نقدك الاجتماعى ، فى الحوار المسرحى .

قال: شكرًا ، لأنك تسعدنى بالوقوف على شواطئ الفن ، أتعرف .. كم تمنيت أن أقيم تياترو على نسق أوربا ، أو أجد وسيلة أسهل من التِرحال ، بجسمى المتعب بين القرى والنجوع ، لأسلى الناسَ وأدعوهم بالفن وَحْدَه للتفكير فى أمور حياتهم ، ولعلى لهذا السبب اهتممت كثيرًا بإصدار الصُحف والمجلات لأقول كلمتى وفنى للناس فى ربوع ونجوع مصر ، كما أننى رأيت الحوارَ التمثيلى أقربَ إلى وجدان عامةِ الناس الذين يقرءون ولا يكتبون ، فقدَّمت العديدَ من المشاهد التمثيلية عن العيوب الاجتماعية والاقتصادية التى كانت سائدةً فى عصرنا .

* نصل الآن إلى روايتك التمثيلية «الوطن» ، التى مثلتها بنفسك ، كلون من ألوان نشاطك المتنوع .

– كان لرواية الوطن بالذات، تأثير كبير فى نفوسِ الشعب، فقد نبَّهتْ منهم الأفكار وفتحت الأنظار، وهذا هو واجب الأديب فى كل ألوانِ الفنِ والأدب التى يمارسُها أن ينبه الأذهان. وأن يَنْقُدَ كافة العيوب الاجتماعية والسياسية ويصِفَ ما تعيشُه البلاد، ولقد كانت البلاد على زمانى أنا – فى عصر الخديو – تعيش فى فوضى واضطراب، ولهذا حَرِصْت فى روايتى تلك، وكلٍّ تمثيلياتى وأزجالى وكتاباتى السياسية، أن أوجِبَ على الجميع أن يفكروا وأن يبحثوا فى أسباب تخلفهم و.. كنت استحثهم أيضًا للتقدم كى يسايروا كل الأمم، ويتمسكوا بكل ما يُحرك الهِمم، لتلحق بلادُنا بمدنية المتقدمين، وكى نهجر همجية المتأخرين، ونستعيدَ قوتَنا ونفوذَنا الحضارى، يوم كنا فى مقدمة الأمم.

* حيث أن الوقت يلاحقنا، ترى ما هو أحلى ما تذكره الآن من أزجالك، لكى نختتم به هذا اللقاء؟

قال: لى زجلان أعتزُ بهما.

* ما الزجل الأول؟

– بعد أن تمكّن الإنجليزُ من عرابى واحتلوا مصر بالغدرِ والخيانة، وجَّهتُ للأمةِ العربية زجلا قلت فيه:

بنى العُرْب هيا لا يعيش جبانُ
فجسمى وروحى همــة وجَنّــانُ

لكم وطن لا يعرف الحسنُ غيرَهُ
فإن لم تكونـوا حافـظينَ يهانُ

* والزجل الثانى ؟

- قلت فيه مودعًا الصِحابَ والإخوان :

أودعــكـم واللهِ يــعــلم أنــنى
أحب لقــاءكم والخلودَ إلـيكـمُ
وما عَنْ قِلى كانَ الرحيلُ وإنما
دواع تعـدَّتْ فـالسـلام عليكُم

- وعليكم السلام يا عبد الله النديم.. وشكرا !!

هـ . ج . ويلز

هو شخصية تتميز - أو تميزت - بخيالها الخصب ، والتنوع فى عطائها للبشرية ، والغزارة فى العطاء ، لمعت فى الصحافة ، وعالم الفكر والأدب ، وكانت فذة فى خيالها يكفى أن نقول أنه أول من حلم وسجل حلمه فى رواية عن صعود الإنسان إلى القمر ، أو غوصه إلى أعماق البحار.. فنقول على الفور ، إنه هـ . ج . ويلز ، أو هربرت جورج ويلز ، الذى ولد عام ١٨٦٦ بضواحى لندن ..

قلت لـه: نرجو أن نتفق مع المستر هـ.ج. ويلز.. على أن نحصر حوارنا معه عن المدة التى من عام ١٨٩٥ يوم بدأ يكتب إلى عام ١٩٤٥ يوم رحل ، إنها فترة خصبة متنوعة ، أليس كذلك ؟ .

قال : معك حق ، إنها كانت فترة متنوعة بحق ، وهى تاريخ

طوله نصف قرن من الزمان، والأهم بالنسبة لى أننى عشت لحسن حظي هذه الفترة.

* لماذا؟

- لأنها فترة حظيت بالتطورات والانقلابات العلمية والاقتصادية والصناعية، وأيضًا كانت فترة طموحات عظيمة أظن أن آثارها سوف تبقى لزمن آخر قادم.

* فعلا، معك حق، ففى الزمن الذى جئت منه إليك، تحقق فعلا وصول الإنسان إلى القمر، «أمريكا، وروسيا» أرسلتا سفن الفضاء إلى القمر وإلى الزهرة والمريخ أيضًا، وطبعا توصلوا فى أواخر أيامك إلى اختراعات بحرية مثل الغواصات و.. هه.. ما هو رأيك الآن فى أحلامك؟.

- أولا: بالنسبة لأحلامى، فأنا شأن كل المفكرين والأدباء، كنت واثقًا إلى أكبر حد ممكن بأحلامى الخاصة، إن حلم الأديب، عالم خاص له مكوناته وله آفاقه أيضًا، وكل منا يصوغ أحلامه فى بحث علمى فى معمله أو فى كشف طبى أو رواية خيالية، كما تعرف.

* وثانيا:

- هه. ذكرنى بسؤالك، من فضلك.

قلت: أود أن أعرف رأيك فيما وصل إليه العلم، ووصول الإنسان إلى القمر، وإلى آخر ما حلمت أنت به فى رواياتك.

- آه، هذا ما تقوله أنت، فأنا لا أعرف عنه شيئاً لأننى لم أعش عصركم.

* معذرة، كدت أنسى ذلك، المهم، دعنا نعود إلى عصرك أنت، لأنى أريد أن أعرف رأيك فى ما يقوله البعض من أنك كنت مفكرًا واست أديبًا ؟

- (يضحك) أنا صحفى قبل كل شيء، لأن أسعدَ لحظاتِ عمرى، كانت يوم أكتُبُ مقالة صحفية أدعو فيها إلى الإيمان بالأديان بكل قوة.

* هل تذكر آخر مقالة نشرتها قبيل رحيلك، لقد كانت عن القنبلة الذرية.

- نعم، نعم، أذكرها لأنها آخر ما خطت يداى، وقد رأيْتُ أن خلاص البشرية من عذاب الحروب وجحيم القنابل الذرية لن يتحقق إلا بقوة الإيمان، والإلحاح بدون مللٍ على هذه الدعوة.

* يقولون أيضًا: إنك أردت أن تفرض سيطرة الإنسان على الأرض والماء.

- لحظة، قبل أن تتم سؤالك، أنى أذكركم بما قلته منذ لحظة، وأعنى به قوة الإيمان. والإيمان يعنى فورًا. الإيمان بقوة الإله الواحد. الذى خلق كل شيء ومنه نستمد القوة والقدرة على السيطرة على الطبيعة من حولنا.

* نصل إلى نقطة أخرى، لماذا انشغلت بإنشاء موجز تاريخ البشرية ؟

– إننى من المفكرين الذين يؤمنون بتطور الحياة تبعًا لما يهبنا الله من فكر وفهم بأصول هذا التطور.

* بمعنى ؟

– بمعنى أن ما حدث فى العصور البدائية، ثم فى العصور الحجرية، ثم كل أحداثِ حضاراتِ القدماء المصريين، والسومريين، والآشوريين، وغيرهم.. إذا نظرنا إلى معطياتها كلها فسوف نجد أنها حلقاتٌ متصلة وكل منها مرحلة تؤدى إلى المرحلة التالية لها، وهذه هى روحُ التطور البشرى بإيجاز، علينا أن نفهم إنجازات من سبقونا أولا، لكى نضيف ما نريده نحن بوعى.

* يقال إنك اعتمدت على جهود غيرك من المؤلفين والباحثين، استأجرتهم ليلخصوا لك تاريخ العالم ثم طبعت جهدهم هم، باسمك وحدك ؟

– هذا صحيح، وقد وجهوا لى نقدًا شديدًا بعد أن بدأت فى نشر الفصول الأولى من موجزِ تاريخِ البشرية، وبرغم أننى اتفقت صراحة مع الذين ساعدونى فى هذا العمل على تجاهل أسمائهم، إلا أننى أمام النقدِ اللاذع نشرت أسماءهم فى صدر الطبعة التاليةِ من كتابى هذا، ولكن.

* لكن، ماذا ؟.. أراك تميل للسخرية وإلى شىء من المرارة ؟

– ليتهم – كما قلت فى مقدمة ذلك الكتاب – اهتموا بفهم أن وقاية المحصولات الزراعية من الآفات، سوف يساعد تلقائيا على انتشار الحب والزواج السعيد فى العالم.

* كيف؟ أقصد ما هى علاقة مقاومة الآفات الزراعية بانتشار الحب والزواج؟

– علاقة وثيقة جدًّا.. وفكر معى، إن مقاومة الآفات الزراعية سوف تؤدى تلقائيا إلى زيادة المحاصيل الزراعية، وهذا يؤدى إلى قلةِ الجوع، وربما أنهى مشكلة الجوع نهائيًا. والجوعى لا يعرفون الحب، أما العكس فهو صحيح كما ترى.

* «ضاحكا» إن هذا يذكرنى بقولك فى مقدمة موجز تاريخ البشرية، إن الذين يستطيعون اقتناء هذه الموسوعة الضخمة، لديهم الحق فى أن يستبدلوا بالأوراق التى يضمها الكتاب أوراقا أخرى جديدة تحتوى على معلومات جديدة عن الدنيا والعالم.

– ولم لا، إن من يتفوق فى الفهم والمعرفة، من حقه أن يحصل على جائزة مغرية وهى المزيد من المعرفة أليس كذلك؟

قلت: نحن نعرف أن «برنارد شو» مثلا وكان معاصرًا لك، قد أهاج الدنيا بسلسلة مقالات ساخطة ضد بلاده إنجلترا بسبب حادث «دنشواى» فى مصر، فلماذا فضلت أنت الصمت عن بشاعة ما حدث؟

قال: أصارحك بأننى نشرت موقفى الصامت هذا، أذكرك

بما قلته ، لقد كانت بينى وبين « شو » خصومة ما ، معركة صحفية بمعنى من المعانى .

* وكيف كان ذلك ؟

- فى مرة نشرت مقالا صحفيا قلت فيها : لو أننى على ظهر سفينة وكان معى « برناردشو » «وبافلوف» العالمُ الشهيرٌ فى علم النفس ، ثم تعرضت السفينة للغرق ، فسوف أنقذ « بافلوف » وأترك « شو » يغرق . فرد « شو » على مقالتى بمقال ساخر قال فيه : لو كانت رأس « شو » من (ذهب) ، فإن رأس « ويلز» من (طين) . هذه هى القصة ، التى نشرتها الصحف .

لكن هذا لا يقلل من احترامى « لبرنارد شو » أو تقديرى له ككاتب فذ ، ثم إن الخصومة كانت أقرب إلى المداعبة الساخرة منها إلى أى شىء آخر .

* أظنك تذكر ماقلته فى ذكرى الحرب العالمية الأولى..؟

- قلت : « إننا نحن البشر أمة واحدة ، وإن هذه الدنيا قريتنا الكبرى التى يجب أن ننظمها ، ونخطط حركة مرورنا فيها »

* لكن - مع ذلك - سرعان ما يعاودك الشعور باليأس من مستقبل البشرية فى معظم كتاباتك ، لماذا ؟

- بذور اليأس وجدت منذ ولدت فى « قاع » الحياة الاجتماعية بلندن ، إذ كانت أمى خادمة فى منزلٍ لأحدِ الأثرياء .. وأول ما أذكره عن طفولتى هو : رؤيتى لأحذية الناس وهم يسيرون على

بطوار الشارع، وأنا قابع في نافذة البدروم لا أرى وجوه الناس، تمكنني استطعت أن أتعلم مع ذلك، وتخصصت فى (البيولوجيا) أو علم الحياة، وألفت كتابًا عن تشريح الأرنب، وحوالى عام ألف وثمانمائة وتسعين، شرعت في كتابة قصصٍ خيالية على نسق «جول فيرن» وإن كانت قصصاً على مستوى أعلى.

* دائمًا أنت حريص على إبراز نبوغك، هل هو نوع من الغرور؟

- وماذا فى ذلك، إن الفنان لابد له من بعض الغرور.. سمة الإحساس بموهبته وتفرده، سمة الثقة فى نفسه، إننى نابغة حقًا، لكننى لم أبن مجدى على جثث الآخرين، بل بكتاباتى، مثل قصة (طعامُ الآلهة)، و (حرب العوالم)، و (عالم الغد)، وأحلامى عن رحلاتِ الإنسانِ إلى الفضاء الخارجيِ والوصول إلى القمر..

قلت له: سؤالى الأخير «هـ. ج. ويلز» العالم الأديب المفكر الفيلسوف المؤرخ.. الروائى الخيالى.. ما هو أحلى ما تحب أن نذكره لك الآن؟

قال «ويلز»: سوف يبقى نوعنا البشرى فى امتداد هذا الكونِ الأوسع، كى نعيش فيه على وجدان أكبر، وننتصر يوما بعد يوم، على الجوع والعطش والمناخ والمادة بقوة الإيمان، بقوة الحب، بروعة الإخاء، وصفاء القلبِ والعقلِ معًا.

ابن مسكويه
وفلسفة الصداقة

على ناصية التاريخ.. ألتقى الآن بمفكر عربى قديم، هو ابن مسكويه.. الذى ترك لنا مؤلفًا خالدًا عن فن الصداقة، ضمن ما ترك من تراث مفيد، وقد عاش فى عهد «أبى جعفر المنصور وإلى عهد الرشيد» فى الدولة العباسية .. أى من سنة ١٣٦ هجرية إلى ١٧٠ هجرية.. ما رأى «ابن مسكويه»؟

- هو ذاك، إنها الفترة التى نشطت فيها حركة الترجمة للتراث العلمى من اليونان والهند وفارس، إلى لغة العرب، فامتزجت ثقافات الإسلام بها وأثرت وتأثرت، وجئت أنا فى حوالى ٢١٨ هجرية فى عهد المأمون، لأقرأ الكثير من هذه الترجمات وأتأثر بها كثيرًا، وبالذات تأثرت بكتاب «الأخلاق - لنيقوماخوس» وكتاب

«النفس لأرسطو»، وبعض كتب «أبقراط» عن (الأمراض، والأخلاط، وطبيعة الإنسان)، وكتاب «التشريح لجالينوس»..

قلت له: هذا مثال فريد، يؤكد أهمية أن يكون الإنسان وبالذات المشتغل بالفكر والفن منهم، حريصًا على الاطلاع لتوسيع آفاق ثقافته - لكن - دعنا نتوقف أمام مسألة الصداقة، لقد خصصت لها جانبًا كبيرًا من كتابك القيّم (تهذيب الأخلاق)، فما هو تعريفك للصداقة؟

قال: قرأت عن «أرسطو» تقسيمة المحبة على أساس أن مقاصد الناس فى مطالبهم ثلاثة، هى: اللذة، والخير، والمنافع، أما أنا فقد توصلت إلى تقسيم علاقات الناس.. بالمراحل لا بالأهداف وحدها.

* إنه لشىء مفيد حقًّا أن نتعرف على تقسيمك العلمى لعلاقات الناس (ببعضهم البعض)، منذ أكثر من ١٢٠٠ سنة، دعنا نعرف هذا التقسيم «يابن مسكويه»؟

- ما ينعقد سريعًا وينحل سريعًا، هى المحبة التى سببها الاستهواء، لأن الاستهواء سريع التغير..

* والقسم الثانى من علاقات الناس؟

- هو ما ينعقد سريعًا وينحل بطيئًا، وهى المحبة التى سببها الخير، ثم ينعقد بطيئًا، وينحل سريعًا وهى المحبة التى سببها

المنافع، ثم ما ينعقد بطيئًا وينحل بطيئًا، وهى المحبةُ التى تتركب من هذه الأنواع جميعًا..

* إذن يمكن تلخيص المسألة فى أن المحبة التى تقع بين الناس، تتميز بأنها تكون بإرادة وروية وحكمة وتعقل، فماذا عن الصداقة ؟

- تسبقها الألفة.. فالألفة تؤدى إلى الميل الطبيعى، إلى المحبة، والمحبة والألفة يؤديان إلى الصداقة، والصداقة هى - المودة - فهى أخص من المحبة، لأنها لا يمكن أن تقع بين جماعة كبيرة، فالصداقة تكون بين شخصين أو ثلاثة.

* أذكر أنك حددت أسبابًا للصداقة فى كتابك (تهذيب الأخلاق)، هل تذكرها الآن ؟ «يابن مسكويه» ؟

- الصداقة تحدث، إما من أجل اللهو، وهذا يقع بين الأحداث، فهم يتصادقون سريعًا ويتعاطفون سريعًا، وإما للمنفعة المتبادلة وهذا يقع بين الكبار..

* لكن هناك صداقة نقية تقوم على الخير ؟

- بالطبع الصداقة الخيرة تحدث بين الأخيار من الناس، ولا أخفى عليك أن هذا التقسيم قرأته أنا عن «أرسطو» فى (كتابه الأخلاق)، لكننى زدت عليه: أنه لما كان الخير شيئًا ثابتًا غير متغير، صارت مودات أصحابه باقية غير متغيرة، وفيها خلا المحبة الإلهية يمكن للمتحابيين أن تنعقد محبتهما معًا وأن تنحل معًا، وأن تبقى من جانب وتنحل من جانب..

* نحن نعرف أنه إذا اختلفت أسباب المحبة، كانت أسرع تحللا. لكن هل ينطبق نفس المقياس على علاقات الصداقة؟

- إن الصداقة الخيرة لا تكون للاستهواء أو للمنفعة، بل القصد منها هو الخير والتماس الفضيلة، فإذا أحب الصديقان أحدهم الآخر لهذه الأسباب الفاضلة، لم تكن بينهما مخالفة، ولا منازعة، ونصح بعضهم بعضًا، وتلاقو بالعدالة والتساوى فى إرادة الخير، ولهذا عرف الصديق بأنه (آخر، هو أنت).. إلا أنه غيرك بالشخص.

* إن هذا المعنى مستمد من الحديث الشريف: «كم من أخ لك لم تلده أمك»... ومن الحديث النبوى الآخر «أحب لأخيك ما تحبه لنفسك».

- تمامًا، وأيضًا أقصد محبة الوالد لابنه، ومحبة الابن لأبيه، فهناك اتفاق ذاتى بينهما على هذا الحب، ذلك لأن الوالد يرى فى ولده أنه هو هو، وأنه نسخة من صورته، ولهذا يحب الوالد لولده جميع ما يحبه لنفسه من خير،؟ ويسعى فى تأديبه وتكميله بكل ما فاته فى نفسه طول عمره ولا يشق عليه أن يقال له ولدك أفضل منك، بل يسره ذلك..

* هذا من محبة الوالد لولده فماذا عن محبة الولد لوالده؟..

- اما محبة الولد لأبيه، فإنها تنقص عن هذه المرتبه التى عليها

حب والده له، لأن الولد على مقدار عقله وبمقدار استبصاره فى الأمور، وفهمه لها، يكون تعظيمه لوالديه.

* لك تفسير جميل فى تربية النفوس على المحبة فهل نستمع إليه؟

- إن المحبة التى لا تشوبها الانفعالات، ولا تطرأ عليها الآفات هى محبة العبد لخالقه، وهذه المحبة تتصل بها الطاعة والتعظيم.. ويتلوها بعد حب الله محبةُ الوالدين وإكرامهما وطاعتهما .. (وصاحبهما فى الدنيا معروفا) صدق الله العظيم، وبعد ذلك علينا بمحبة الحكماء، لأنهم الوسيلة لتهذيب عقولنا بحكمتهم الفاضلة، ثم محبة كل ما تَكْسِبه بالحلال والتعب.

* محبة المال تقصد؟

- المال والبنون زينة الحياة الدنيا، ولكن ما يكتسب عن طريق التعب، تكون المحبة له أشد، والضن به أكثر، ومَنْ وصل إلى المال بغير تعب، لم يكترث به ولم يبخل به، وبذله فى غير موضعه، كما يفعل الوارث الأهوج ومن يجرى مجراه، أما من تعب فى طلب المال وشقى بجمعه دون أن يظلم غيره من البشر، أو يظلم نفسه بمعصية، فإنه لا محالة يكون شديد المحبة له، ولهذه العلة ذاتها صارت الأم أكثر محبة للولد، لأنها «حملته وهنًا على وهن» تسعة أشهر، وشقيت فى رضاعته ورعايته ولأنه يعوضها من الحنين كثيرًا.

* عظيم ، نتوقف أمام نصائحك لمن يريد صداقة غيره ، ويسعى لأن يكون صديقًا خيرًا .

– قرأت عن «ابن المقفع» فى كتابه (الأدب الكبير) ، آراء معتبرة أضفت إليها من عندى الكثير وخلاصة القول :

إن على الإنسان الذى يريد أن يكون صديقًا خيرًا ، عليه أن يحذر انتحال آراء غيره ، ولعلك لاحظت أننى أشير إلى كل من تعلمت منه «كلمة» .

* تمامًا ، إنها الأمانة العلمية وإعطاء كل ذى حق حقه ، ولهذا تكتسب نصائح «ابن مسكويه» قيمتها وأمانتها ، والآن هل نستمع إلى بقية نصائحك :–

– لاتخلط الجد بالهزل ، ولا تخلط الهزل بالجد ، حتى لا يتكدر صاحبك منك ، وتورد نفسك مورد سفه وغضب .

ولا تخف إذا خالط صديقُك عدوَّك لأن صديقك أحد رجلين : إن كان رجلا من إخوان الثقة ، فمخالطة عدوك ستجعله يكف شره عنك ، وإن كان رجلا من غير خاصة إخوانك ، فبأى حق تقطعه عن الناس وتكلفه ألّا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى ، واستح أن تخبر صاحبك أنك عالم وأنه جاهل ، مصرحًا أو معرضًا ، وإن آنست من نفسك فضلا ، فتحرج أن تذره أو تُبديه .. وأعلم أن حديثك عن أفضالك ، سيقرر لك فى قلوب الناس من العيب ، أكثر مما لك من الفضل ، وأظن . هذا يكفى الآن .

وتذكر أن الصديق يشارك أخاه فيما ابتلى به ، إما بالمواساة ، وإما بالنصيحة أو بمد يد المساعدة .

تذكر أن السخاء نوعان : سخاوة الرجل بما فى يده ، واستغناؤه عما فى أيدى الناس .

واعلم أن أقوى القوة لك على عدوك ، هى أن تحصِى على نفسك العيوب والعورات كما تحصيها على عدوك ، وإذا أخذت على الناس عيوبًا فسل نفسك ، هل فارقت هذه العيوب أو سلمت منها ؟ ولا تقابل سفه السفيه بسفه مثله وإلا كان معناه أنك راض عن سلوكه ولهذا حذوت حذوه .

وتعلم حسن الكلام ، كما تتعلم حسن الاستماع ، وإذا استشارك صديق فأخلص له المشورة . ولا تلمه إن استبان الصواب فى ترك رأيك - و - أخيرًا ..

ثم قال « ابن مسكويه » : لكى تكون صديقاً صادقًا خيرًا محبا ومحبوبًا من الناس ، فليجتمع فى قلبك الافتقار إلى الناس ، والاستغناء عنهم ، ليكن افتقارك إليهم فى لين كلمتك لهم ، وحسن بشرك بهم ، وليكن استغناؤك عنهم فى نزاهة غرضك وبقاء عزك .

- أخيرًا ، نكرر الشكر للمفكر العربى القديم «ابن مسكويه» الذى كتب لنا عن تهذيب الأخلاق منذ أكثر من ١٢٠٠ سنة كاملة !..

دانتى

* ونَعبرُ الزمانَ سبعمائة عام إلى الوراء، ونَعبرُ المكانَ إلى إيطاليا لِنلتقىَ على ناصيةِ التاريخ بصاحب (الفِرْدَوسِ المفقود)، الشاعِر الإيطالى القديم «دانتى»، الذى يقول عنه المؤرخون إنه دَرَسَ حضارةَ الإسلامِ وتأثر بها، وتأثر بالذات «بأبى العلاء المعرى»، وأخذ عنه فكرةَ روايته الخالدة (جحيم دانتى)، التى تُصورُ رحلةَ الإنسان إلى العالمِ الآخرِ، وتخيله أنواع الحساب التى حدَّثنا عنها القرآن الكريم، وكلِ الأديانِ السماويةِ الأخرى، حديثًا يحذرُ الإنسانَ من نتائِجِ سلوكه فى الحياة الدنيا، ويُحببهُ فى عملِ الفضيلةِ على الدوام.

– لكن من هو «دانتى».. ؟ قد يبدو السؤالُ غريبًا، لكن

الغرابةَ ستزول لوعَلِمنا أن مايعرفُه العالَمُ عنه قليل، حتى إن المؤرخَ العالمىَ الكبير «توماس كارلايل» يقول عنه فى كتابه (الأبطال):

- لقد ألفت عدة تراجم عن «دانتى» ونشرت عدة شروح لقصصه الخالدة، ولكنها على العموم قليلة الثمرة، أما تاريخ حياته فقلما يعرف عنه شىء كثير.

* لهذا نسألُ «دانتى» نفسَه، من تكون؟

فقال: لم أكن فى زمانى إلا رجلا صغير الشأن شريدًا طريدًا، مكسور الفؤاد مهيض الجناح، شأن رجال كثيرين عاشوا معى فى ذلك الزمن، منذ سبعة قرون.

* لكن بين أيدينا صورةً لك بريشة الرسام المُصور «جيوتُو» هل تذكُرها؟

- أذكرها جيدًا، فقد كنا جميعًا نعيش عصرًا من الخمول والبلاء، وقد أجاد المصور «جيوتو» فى تحريك فرشاته الموهوبة، ورسم ملامحى بإجادة حقيقية، أما أنا فأرى وجهى فى الصورة وكأنه مرآة ينعكس عليها مرض كبدى، وآلام أحشائى وآيات الحزن والألم التى عشناها فى زماننا.

قلت: يقول أحدُ الدارسين: إن صورتك تعكس أيضًا آيات الفوز والظفر العظيم، برغم أنك وحيدٌ فى الرسم، ولا يَحُف بك أثاثٌ ولا رياش، ولا ملامحُ نعيم حياةِ التصورِ الشائعة على عصرك منذ سبعة قرون طويلة.

قال : « دانتى » : لقد عشت فى زمن سيطرت عليه روح الوحشة .

قلت له : هل كل هذه المشاعر المؤلمة ، كانت بسبب فَقدك « لبياتريس » ؟

قال دانتى : آه « الحبيبة بياتريس » ، كانت شريكة العمر ، كانت رمزًا مجسدًا للطفولة والرقة والرحمن والحنان ، وكم كان قاسيًا أن تخالط هذه المعانى النبيلة الرقيقة معان أخرى أشد قسوة ، معانى وحشة وسخط وألم ، لكن « بياتريس » كانت تعانى ذلك فى تجلد وتعزز ويأس ، فى رفعة وكبرياء .

سألته : « بياتريس » ، مُلهِمَةُ « دانتى » فى رائعته « الجحيم والمَطهرِ والفردوس) ، ماذا تذكر عنها الآن ؟

فقال : « بياتريس » ، كانت روحًا رقيقة ، كانت هواءً نقيًّا ، عاشت معى لحظات الصفاء ، وعانت معى لحظات العبوس ، وكانت دائمًا رمزًا للتفاؤل والاستهزاء بالأحزان .

* كانت أكثر من مُلهمة ؟

– كانت : « بياتريس » كانت الشيء الذى يذيب الحشاء ، ويأكل الفؤاد ، وكانت أشرف من كل الذين جوعونا ، هى وأنا كأس البلاء ، وسامونا عذاب الحرمان والقسوة .

* يقولون إنك من أجلها ، فعلت ما فعله الرومان فى حروبهم التى صَورَّها « هيوميروس » ، أعنى أنك حاربت العالمَ كله من أجلها ، مثلما فعلوا هم بسبب « هيلينا » ؟

– « بياتريس »، كانت أجمل وأروع من « هيلينا »، ومن أية امرأة سبقَتها، لأنها عندى رمز الخير والجمال والحق والعدل، إنها أحلام الإنسان، بروح الأمل والحب، لقد كانت تستحق أن أقيم لها حفل تكريم نبيل يليق بها، كما حاولت أن أفعل فى روايتى عنها، فمن أجل البحث عن شفافيتها، ومعانقة أحلامها؛ غاص وجدانى وخيالى ومشاعرى كلها، غاصت فى لهيب الجحيم والمطهر ثم، كان لابد أن أجدها فى الفردوس، وسط الملائكة الأطهار الذين يعرفون روعة الإيمان بالإله، وروعة العمل الطيب بين سائر البشر.

قلت له : سيدى الشاعر العظيم « دانتى »، بيننا وبينك الآن ٧١٤ سنة كاملة سَبعُمائة وأربع عشرة سنةً لأنك وُلدت فى « فلورنسا » عام ١٢٦٥ م ألفٍ ومائتين وخمسة وستين فهل تُحدثنا عن سماتِ عصرك، وذكرياتِ نشأتك الأولى ؟

فقال : أذكر أنى تعلمت وتثقفت على أحسن نظام كان موجودًا فى فلورنسا، بل فى إيطاليا كلها، وكان فيما تلقيته من علم كثير من الفقه والمنطق والأدب اللاتيني و (يضحك متواضعًا)، كانوا يقولون إنى ذو فهم صفى مهذب، وذكاء مستقل، وعقل راجح – و – ماذا أيضًا، لا أذكر فهل تتفضل يا ولدى بذكر ما لديك من معلومات فاتتنى ؟

* تقول الدراساتُ عنك، إنه كانت لك قدَمٌ راسخةٌ فى بعضِ

العلوم، وإنكَ صَحِبت جيش بلادِك فى حربين، وذهبت مرة سفيرًا إلى بعضِ الولايات الإيطالية.

- آه، يقصدون تلك الحروب الكئيبة التى كانت تشتعل بين الولايات الإيطالية وتحرق حلمها فى التوحد كأمة واحدة - آه - لا تذكرنى بها. إنها ذكريات قاسية.

* لعلك لا تعرف الآن، أن إيطاليا صارت دولةً موحدةً منذ زمن طويل، وأن لها إسهامَها الحضارى، ويكفى الآن أنها تتباهى بشاعرها « دانتى »، بك أنت، لكن المهم، دعنا نتذكر معك، دعنا كيف أصبحتَ ذات يوم قاضيًا ؟

- قالوا يومها: إنه بفضل ذكائى واجتهادى فى القانون، أصلح لأن أكون قاضيًا، المهم أننى كنت آنذاك فى الخامسة والثلاثين من عمرى.

* ها نحن نقترب من (قصةِ بياتريس) معك، كيف عرفتها ؟

- منذ الطفولة، عرفت صبيةحسناء فى مثل سنى، ومن أسرة مثل أسرتى، أى من أكابر القوم، الذين يعنون بتربية بناتهم وأولادهم، وتنشئتهم على أسس من القيم الفاضلة، والروح الدينية والمثل العليا.. و (يصمت).

* أرجو ألا نكونَ بهذا الحديثِ نثير كوامنَ الذكرياتِ المؤلمةِ لك.

– وهل الذكريات إلا هكذا بحلوها ومرها، إنها الحياة يا ولدى، فسل ما شئت ؟

* ليس عندى أسئلة، بقدرِ ما أريد أن أسمَعك تحكى قصة حبك العظيم « لبياتريس ».

– كنت أراها أحيانًا، وكانت تمتد بيننا صلات ودية على بعد، وكلكم يعرف ما حدث لنا، صورة تتكرر كثيرًا، وقفت الضغائن

بيننا – و – اقترنت « بياتريس » برجل آخر غيرى ثم توفيت، رحلت عن هذه الحياة بعد أن أجبرها والدها على الزواج ممن لا يصلح لها شريك عمر أو مبعث حب وهناء.

إنها قصةٌ معادةٌ يا سيدى الشاعر، صورةٌ قاسى منها زَمانُكم ومازال يقاسى منها زماننا فى بعض المناطق، مازلنا نسمعُ عن فتيات لا يُستشرن فى اختيار شريكِ حياتهن.

– كل الأديان السماوية، وكل البيوت المتحضرة تعطى المرأة حق الاختيار حرصًا على هناء ابنتها وسعادتها، واحترامًا لأهم ما فى الحياة من قيم، وهم أطفالنا، وهم عدة الأمم كما تعلم، فكيف يتعجل أى أب مثلما فعل والد « بياتريس »، ويزوجها برجل لا يصلح لها، إن الجريمة لم تكن ضد حبى « لبياتريس »، ولا ضد أحدنا بل كانت ضد أسرة وأطفال ومجتمع، وقيم ومثل عليا أيضًا.

قلت : قد نتأثرُ بقصةِ حب « دانتى » الحزينة « لبياتريس »، قد

نتأثر أكثر بقصتِه الخالدة (الجحيم) ، لكننا بالقطعِ فى شوق لأن يختار لنا الشاعرُ العظيمُ « دانتى » ما يجب أن نختتم به هذا اللقاء معه .

فقال « دانتى » : أختار لكم هذه الأبيات التى أهديها إلى « بياتريس » ..

فى عالم الأرواح ، فى الجنة ، حيث يحيا من
أحبوا بصدق وشرف ، تجد الأرواح النبيلة . وكل منها
كأنما هو فى حل ومرتحل
موكل بقضاء الأرض بذرعه
كالكوكب الذى أخلص ضوءه ..
حلك الدجى حتى تألق وانجلى .

ول ديورانت

هذا الرجل قال لزوجته : عن إذنك ، سأغيب عنك قليلا فى غرفة مكتبى لأنتهى من هذا الكتاب ، سأعود إليك بعد قليل ، - ثم - عاد إليها بعد ٤٠ سنة كاملة ! .

إنه المؤرخ المفكر الأمريكى الشهير « ول ديورانت » صاحب الموسوعة الخالدة (قصة الحضارة) فى ١٠ أجزاء ضخمة، ترجم نصفها المرحوم « محمد بدران » فى ٢٢ جزءًا، وسوف نبدأ بقصته مع زوجته لأنها تستحق الاهتمام بحق.

* * *

قلت له : سيدى المؤرخ « ول ديورانت »، هل تسمح لنا بدقائق من وقتك ؟

- يسعدنى أن أرحب بكم.

* أعتقد أننا لابد أن نبدأ بالحديث عن زوجتك، تلك التى دفعت ثمن صدور كتابك الضخم انتظارًا وصل إلى أربعين سنة.

قال: زوجتى، إنها أعز الناس، وهذا ليس بغريبٍ على أىّ زوجين متحابّين، فى أى بلدٍ من العالم.

* يهمنا أن نبدأ حديثنا عن خلاصة تاريخ البشرية، بسطور الإهداء، لأن معناها الإنسانى الراقى سوف يسعد كل بيت.

- إهدائى إليها كان كالآتى: « إريل الغالية »، اصبِرى يا أعزّ الناس، وقِفِى فى صلابةٍ إذا ما سقطتِ من التعب، اصبِرى يازوجتى حتى أعرفَ أن أنفاسى المتناثرة لن تضيعِ، وإنما نتحدُ من جديدٍ فى لحنٍ جديدٍ، هو أنت، اصبرى حتى أقولَ لقلبى إنك سوف تبدئين عندما أنتهى ليقصُرَ الطريق تحتَ قدميك.

* كان هذا الحب والوفاء والصبر، هو أول شرط من شروط الكاتب الأمريكى الكبير « ول ديورانت »، وبين زوجته « إريل »، فقد أهدى إليها كتابه الأول أيضًا عن (قصة الفلسفة) الذى باع ١٢ مليون نسخة فى طبعته الأولى كما أهدى لها (خالدته)، موسوعة تاريخ البشرية كلها، باسم (قصة الحضارة).

وسؤالى الآن، ماذا بعد أن أكملت مؤلفك الضخم، عن قصة البشرية كلها!

– بعدَ أن أصدرتُ الجزءَ الأخير، وكانِ عن أثرِ الثورة الفرنسية في تاريخ البشرية وحقوقٍ الإنسان، أعلنتُ أن رسالتي الفكرية قد كَمُلَتْ، وقرّرتُ أن أنفذ اتفاقي مع « إريل »، شريكة العمرِ كلِّه .

* هل تروى لنا، كيف كان وفاؤك بالعودة إلى الحياة الأسرية .. ؟

– كنت قد حققتُ المجدَ والمال، ثلاثةَ ملايين من الدولارات، وكان من حقِ زوجتى « إريل » وابنتي « إثيل » أن تعيشا في سعادةٍ أَسَرية، ولكنْ.

* أظن أنك تذكرت سؤال ابنتك « إثيل »، وكيف أنت اضطررت لقطع الهناء الأسرى مرة أخرى..

– نعم ما إن بدأنا نعيشُ حياتنا الأسرية بهناء بعيدًا عن عُزلة البحثِ والتأليف والتفكير . حتى فاجأتنى ابنتى « إثيل » بسؤال قالت لى :

* ما معنيِ ما كتبته يا أبي ؟، فقلت لها :

–إنه تاريخ البشرية – لكنها عادت تسألني :

* ما معنيِ التاريخ، وما قيمةُ دراسته ؟

– أن تظلَّ ذاكرة الشعوبِ يقظةً واعيةً بمجرياتِ الأحداث، لكي تواصل رسالة التطور.

* وما الذى يستفيدُه رجلُ الشارع إذا قرأ تاريخ بلادِه ، أو تاريخ الحضارةِ الإنسانية كلها هـه ؟

* إنها ابنتك « إثيل » ولا أحد غيرها ، وأعنى بذلك ، أن مؤلفاتك الضخمة التى أخذت ٤٠ سنة من عمرك ومن سعادة بيتك ، صارت محل اختبار حقيقى ، حتى فى بيتك أليس كذلك ؟

- لقد التفت إلى زوجتى « إريل » ، ودون أن يكون بيننا أى كلام أو اتفاقٍ آخر على الصبْر ، جلستُ أنا « وإريل » ، وتقاربتْ رأسانا ، وامتدتْ أيدينا إلى الورق والأقلام ، وأجلنا شهرَ العسل ستة أشهر أخرى ، ألفنا فيها كتابًا موجزًا بعُنوان (دروسُ التاريخ) ، وجعلناه مبُسَّطًا للغاية ، وموجزا لكى يناسبَ من همْ فى مثلِ عُمْرِ ابنتِنا « إثيل » .

* إذن دعنى أكرر أحد أسئلة ابنتك « إثيل » ، وهو : هل التاريخ مجرد سرد لانحلال ونهوض الإمبراطوريات والاتجاهات والتيارات ؟ هل هو مجرد قصص وردية عن عهد قادم ، وقصص حزينة عن عهد انتهى ؟ وهل الماضى مجرد تجارب مسرحية عاشتها أمم وحكام ؟ وهل التاريخ كما يقولون نصفه تخمين والنصف الآخر حقد ؟ أم هو سلسلة من الأعمال العنيفة لا ضرورة لها ؟ وهل التعليم هو الذى يصنع التاريخ ، وأن القوى وحده هو الذى يكتبه على هواه ؟ وهل واجبنا أن نعيد كتابة التاريخ ، أم أن نفهمه فقط ؟ أسئلة كثيرة كما ترى ، وأود لو سمعت جوابًا مبسطًا موجزًا عنها .

- مهلا، ما هذه الأسئلة المتلاحقة ؟، على كلٍّ حال، مهما أطلْت النظَر إلى أحداثِ التاريخ، فنحن نراه من زاوية واحدة ؛ ولا يمكن أن نَرى التاريخَ من كلٍّ زواياه، والذى يدّعى ذلك، مصابٌ بخِدَاعِ النظر..

* أزعم ذلك، لكننى أراك تزيد من حيرتى: هل نحن فقط نحاول الفهم لمجريات الماضى، على ضوء الحاضر، ومواصفاته ؟

- أذكر أنى قلت فى مدخل قصةِ البشرية والحضارة التى استغرقتْ عشرةَ أجزاء ضخمة؛ نحنُ فقط بدأنا نَحفِرُ طرقَ التاريخ، والمهم أن نبدأ بالمعرفة، وكلُ معرفةٍ تاريخية هى معرفةٌ متحيزة، ويجب أن نقنع بما عثُرنا عليه، وأن تستريحَ إلى أنّ كلَّ ما وصلنا هو مجردُ احتمالات ؛ فالتاريخ كالسياسةِ والقانونِ والعلوم؛ كلُ شيءٍ فيه نِسْبى؛ وكلُ قاعدة يجب أن تكونَ موضِعَ شك، لكىْ يواصلَ العقلُ البشرىُ البحثَ والمعرفةَ ومحاولةَ الفهم ؛ وهذا وحدَه سرُّ الاستمرار والاتصالِ والتطور ؛ فلو أنّ العقل البشرى فى مرحلةٍ من المراحل، رَضِىَ واستكَانَ واستسلَم لواقعه، لَظلَّ الحالُ كما هو، وانتهتْ حضارةُ البشرِ كلهَا إلى مَوَات مؤكَّد.

قلت له : ما هى فلسفتك فى استعراض أحداث التاريخ.

فقال : لقد قرأتُ وحاولتُ فهمَ كلٍّ أحداثِ التاريخ فى كلٍّ الحضاراتِ القديمةِ ويمكنُ على ضوء ذلِك كلِّه أن أقول : إن التاريخ

سجلٌ لحوادث الماضي، وإن تاريخَ الإنسان هو لحظةٌ خاطفةٌ على الأرض؛ وفي أيةِ لحظةٍ من الممكنِ أن يقترب أحدُ النجوم أو الكواكب، كما أنه من الممكن أن ينفصل جزءٌ من الشمس ويَصدِمَ بالأرض، فتكونَ النهاية؛ وأيضًا من الممكن أن تُصابَ إحدى الحضاراتِ بِسُعار جنونى يمارسه أحدُ الزعماء بجنون، فيُشْعِلَ نارَ حربٍ طاحنة رهيبة تُدمِّرُ كلَّ إنجازاتِ الحضارة التى صنعها البشرُ عبْرَ عصورِهم.

* يأتى الآن دور سؤالى عن الأديان، وأثرها فى تطور حضارة البشرية ؟

– الأديانُ عاملٌ حاسمٌ وأساسى عبْرَ العصور، وخاصة ففى عصور الرسالاتِ السماويةِ المباشرةِ فى الأديان الثلاث : اليهودية، والمسيحية، والإسلام، التى جعلَتْنَا نُدرِكُ أن السماءَ لو بخلَت بالمطرِ مثلًا ! فسوفَ تموتُ البشرية جمعاء. هذا مجرّدُ مِثال، وأحب أن أؤكدَ أن بعضَ الناس يشكُ فى قدرة الأديانِ على علاج الشرورِ التى تعانى منها البشريةُ عبْرَ آلافِ السنين، ولكننى أقولُ لهم: من المؤكدِ أن العالَم سوف يُصبحُ أسوأ مما نَراه الآن، لو لم يكنْ هناكَ دين. وأعتقدُ أن الجميعَ سيظلُّون على إيمانهم، بأن الأخلاقَ يجبُ أن تكونَ أعلَى من الدولة؛ وهذا هوالضمانُ الايمانى الفعال، لكبْح جماحِ جنون إحدى الحضارات، أو إحدى الزِعَامات؛ وهذا من فضلِ السماءِ على الأرض وما عليها من حضارةٍ إنسانيةٍ خلّاقة.

* أخيرًا، ما الذى نتعلمه من التاريخ ؟.

- هذا السؤال.. أجبتُ عليه فى عشرة مجلدات؛ وأخَذَ من عُمْرِى أربعين سنة كاملة.

قلت له : سؤالى : الغرض منه الوصول إلى تلخيص التلخيص، إلى سطور موجزة.

فقال : أنا نفسى عندما وضعتُ آخرَ سطر فى مجلداتى، سألت نفسى : ما معنَى هذا كله، ما معنى الحضارة ؟، ما فائدة البحث عن معنى ما ؟، هل الحضارة هى انتصارات الإنسان المستمرة على البيئة، أم هى انتصاراتُ الإنسان على نفسِه ونوازِعه ؟، وهل الحضارة، هى البارود والمطبعة والبَرلمان ؟ هل هِىَ صراعُ الإنسان من أجلِ لقمةِ عيشٍ أفضل ؟ وهل يمكنُ شراء التاريخِ بالمالِ أو بالحروب ؟.

قلت : سوف تستمر التساؤلات، وأعتقد أن الإجابة الوحيدة المقبولة فى هذه العجالة هى : إن الحضارة، هى قصص كفاح كل البشر فى كل الأمم، لنشر المحبة والمعرفة والسلم والعلاج والطعام والسلام، و.. إن كفاح كل من سبقونا عبر العصور، هو بُوصلة ضخمة يجب فهمها، لكى نهتدى بها إلى مستقبل أفضل ملىء بالحب والرخاء لكل الناس.

فقال « ديورانت » : وعلينا ألّا ننسى دائمًا أننا نحنُ البشر فى حاجة إلى المزيد من الصبر، والمزيد من الرحمة، وهذا طلبت من

قارئ مجلداتى شيئًا واحدًا.. ترى هل تذكره أنت ياولدى..؟

قلت : نعم ، قلت لكل واحد منا : صفق لى إذا تقدمت ، ارحمنى إذا سقطت ، شجعنى إذا نهضت ؛ ولكن أعطنى فرصة أرجوك ، دعنى أقول كلمتى وأمشى فى حالى ؛ فنحن جميعًا نريد المزيد من الصبر ، المزيد من الرحمة !..

بلزاك

المكان : « باريس » .

والزمان : منتصف القرن التاسع عشر ، فارسنا يلقبونه (بأمير الرواية فى فرنسا) ، ويذهب النقاد إلى اعتباره رائدًا عالميًا لفن الرواية ، وأن كل كتاب القصة والرواية مدينون له بالكثير ، كما أنه يُعد نموذجًا للكاتب الذى امتد تأثير فنه ورسالته لإسعاد وجدان البشرية إلى رحاب العالم كله ، إنه الروائى الفرنسي « أونوريه دى بلزاك » .

قلت له : سألوا « مستر كارتر » - مكتشف مقبرة « توت عنخ آمون »، فى صحارى مصر ، كيف عشت سنوات طويلة فى وادى الملوك، قرب هذه المقبرة ؟

فقال : « عشت عشرين سنة فى صحارى مصر باحثًا عن هذا الكنز، وكان يؤنس وحشتى روايات « بلزاك »، إن « بلزاك » وحده كفيل - بفنه وفكره وحبه - أن يعمر أية صحراء جرداء.

ترى لماذا ؟ السؤال للسيد « أونورين دى بلزاك ».

فقال : ربما لأننى فى كل رواياتى أردت أن أؤكد أن النبوغ البشرى، كالحب سواء بسواء، وأن من بواعث الأسى فقد الأسرة، أية أسرة، والمجتمع، أى مجتمع، أعنى الفقد الروحى المدقع، الذى يجعلنا عاجزين عن إدراك معنى الساعات التى يجب أن نحياها بلا أنانية (وبكل المبالاة).

* هل كنت تحس منذ صغرك أنك ستكون إنسانًا عظيمًا، وكاتبًا له شأنه ؟

- لعلك تشير إلى حديثى مع أختى وأنا صغير ؟

* نعم.

- إن المسألة تتعلق بتأكيد الثقة فى النفس، أكثر مما تتعلق بالتنبؤ بأى مستقبل كنا فى يونية عام ١٨٣ وكنت فى الرابعة عشرة من عمرى، وكنا نتمشى على شاطئ « اللوار » بمدينة « تورن » كنت أتنزه مع أختى، وأمى ؛ وأخذت أحدق فى نهر اللوار، أدهشنى موجة (سريانه) استمراره، غروره، ثقته بنفسه، قدرته على العطاء، وجدتنى أقول :

« لورا »، أتعرفين أن أخاك « أونورين دى بلزاك » سيصير رجلا عظيمًا .

* لقد ضحكت أختك الصغيرة، وأظن أنها لم تصدقك ؟ .

– نعم، اتهمتنى بأننى أحب الكلمات الفخمة ؛ واستعملها دون دون أن أفهم معناها .

* لكن الأيام أثبتت أن ثقتك بنفسك كانت فى موضعها ، دعنا نتوقف أمام شغفك الشديد بالطبيعة .

– صدقنى، ليس فى الوجود أروع لغذاء روح الإنسان من ذلك الغذاء الروحى، الذى نلمسه فى نور السموات وطيب الأرض، بل إننى كلما تعمقت معانى الآداب الإنسانية الخالدة، وجدت أن سر خلود أى أثر أدبى، يرجع إلى أن كاتبه كان نفسًا بشرية ملهمة بنور السموات وطيب الأرض .

* عظيم، دعنا الآن ننتقل إلى مرحلة أخرى من حياتك، لقد اتهموك أنك تريد أن تكون « نابليون » الأدب لماذا ؟

– « نابليون » الأدب ؟ لقب على أى حال لا يغضبنى، لكن دعنى أتذكر السبب (آه) ربما لأننى نشأت فى أوائل القرن الماضى حيث كان « نابليون » فى ذلك الحين هو بطل الأبطال فى أوربا وفى العالم كله .

* و .. ربما وجدوا أنك بالتالى أديب الأدباء ..

- ربما لأننى عملت فترة فى إدارة جيش « نابليون » (كموظف صحفى).

* على كل حال نقاد الأدب فى العالم يتفقون على أنك - أحد أكبر عشرة عباقرة أنجبهم الأدب العالمى، وهذا هو بالتحديد رأى الروائى الإنجليزى « سومرست موم ».

- شكرًا لتقديره وتقديركم جميعًا.

قلت له : دعنا نتوقف أمام بعض ملامح نشأتك الأولى فى عام ١٧٧٩ ولدت، ويفصل بيننا الآن ٢٠٠ سنة كاملة، فما الذى مازلت تذكره من هذه الفترة ؟

قال « بلزاك » : أتذكر الآتى، فى ١٨٠٧ كنت فى الثامنة، ألحقتنى أسرتى بمدرسة « فندوم » الداخلية، وأظهرت الكسل والتبلد، والسبب أننى طوال الدراسة كنت مشدودًا لجمال الأشجار وزرقة السماء فى فناء المدرسة .

* ومع ذلك اشتهرت بأنك خطيب الإنشاء المدرسية ؟

- (يضحك) كنت مغرمًا بالكتابة، كتبت مرة بحثًا فى « الإدارة »، وضبطه معى المدرس، فأخذه وباعه إلى البقال (ضحكات).

قلت له : نصل إلى مرحلة أخرى، أعتقد أنك ألفت بحثًا آخر عنوانه (فى خلود الروح).

– آه، كان ذلك فى عام ١٨١٦، يوم انهيت دراستى الثانوية، وأخذت طريقى إلى «جامعة السربون». وكنت متأثرًا بمحاضرات البروفسور «جيزو» و «فكتور كوزان» عن الفلسفة والتصوف، لكن، أبى دفع بى إلى كلية الحقوق لكى أتبوأ كرسيًا من كراسى القضاء، ولهذا الغرض نفسه دفعنى أبى أيضًا إلى مكتب موثق العقود الأستاذ «باس» أحد المحامين البارزين وكان صديقًا لأبى.

* أظن أن تدريبك لمدة ثلاثة أعوام بهذا المكتب، أثر فى وجدانك الأدبى بعد ذلك؛ فقد التقطت من بين زبائنه أغلب شخصيات قصصك الخالدة.

قال: وهل هناك أروع من مكتب المحامى، مسرحًا لمهضومى الحقوق وهاضميها، وكاسبى الصفقات وخاسريها، والجارين وراء المال يلهثون ويتناحرون، يختلسونه من القريب، ويحتالون على ابتزازه من الغريب، ويقبلون فى سبيل المال كل الأوضاع، وينسون بذكره أنفسهم وأنفس الناس؟

* أعتقد أن إجاباتك عن هذه التساؤلات، هى ما صنعت روائعك الروائية التى يسمونها «الكوميديا البشرية».

– كوميديا بشرية؟ إنه اسم مناسب تمامًا، وبدايته كانت يوم أحيل أبى إلى المعاش سنة ١٨١٩، ولقد خسر كل ما أودعه من ماله فى بعض المشروعات التجارية والاقتصادية؛ فيقرر الأب الشيخ أن تنزح العائلة كلها إلى الريف؛ ويصارحنى أبى بأنه قرر أن أكون

موثق عقود، لكننى أصبته بصدمة أخرى، قلت له : لقد قررت أن أكون شاعرًا يا أبي « ولحظتها صرخ فى.. ».

* أيها الولد الشقى، تذكر أنك إذا لم تكن « مَلِكا » فى عالم الأدب، فسوف تظلُ (صعلوكًا) فى عالَمِ البشر.

- لسوف أكون ملكًا، مثل « نابليون »، ومن يومها وأنا أتعلم « أن ملاحظة الناس كانت مدرسة فريدة، كنت أتجول فى الحدائق والشوارع، والمحلات والمقابر والأسواق، وأتأمل تصرفات الناس، فى مساوماتهم ومشاجراتهم ومآسيهم وأفراحهم.

* نتوقف لحظة أمام ملامح عصرك، روائيًا، إذا كنت تذكر الآن وسنجد أن الفرنسيين كانوا فى عام ١٨٢٠، أى حين بدأت أنت إنتاجك.. يقرءون ثلاثة ألوان من القصص.

قال « بلزاك » : نعم (القصة الغرامية)، (والقصة المأساوية)، (والقصة المرحة)،وكان أغلب أبطال القصص من الطبقة الاجتماعية الممتازة الذين لا عمل أو وظيفة لهم. ويقضون كل حياتهم فى حب سيدات رقيقات جميلات، وكانت أحداث الروايات تدور فى صالونات « باريس »،أو قصور الأشراف فى الريف، وظهر ثلاثى الحبكة القصصية المسلية فى باريس : أقصد : (الزوج، والزوجة، والحسود العازل) أو .. الشريك الثالث الذى ينتمى فى الغالب إلى الطبقة الوسطى ويتميز عادة بطابع الخيانة والغدر إلخ إلخ.

قلت له : لهذا ، اعتبرت قصصك أنت نقلة تاريخية لفن الرواية فى العالم كله ؛ لكن فى تقديرك أنت ، لماذا تعد أنت صاحب هذه النقلة التاريخية للرواية ؟ .

أولاً : تعلمت من الروائى الإنجليزى « ولتر سكوت » ، كيف أصور تاريخ بلادى وحضارتها الماضية ، وحياة الناس كما عاشوها ، وتعلمت منه كيف أصف المكان والزمان والزى والناس ، وكيف أدير الحوار ، وكيف أصب الأحداث صبًّا ؛ غيرَ مهمل أصحاب الأدوار الصغيرة فى الرواية ، ولهذا ، تصورت نفسى مؤرخا اجتماعيًّا للشعب الفرنسى بكل مشاعره وكل طبقاته ، فى ظل ظروف لمعان وتفسخ إمبراطورية « نابليون » ، ومن هنا أيضًا كانت سلسلة رواياتى .

* منذ البداية ظهر أن رواياتك تخص وتهم سواد القراء ، منذ صدرت روايتك (الوارثة) ، عام ١٨٢٢ .

- ثم روايتى (اللقيطة) ، فى نفس العام ، ثم (اليهودى) ، ثم (المعمر مائة عام) ، ثم (الرجل الهائم) ، وقصتى (الجنية الأخيرة) التى تأثرت فيها بألف ليلة وليلة ، ثم رواية (أنيت والمجرم) ، عن حياة القرصان ، ثم (جان الشاحبة) ، ثم قصة (الشوان) ، عن انتصار الشباب فى الحياة ، ثم رواية (علم وظائف أعضاء الزواج) ، وفى عام ١٨٣١ وصلت إلى مرتبة المجد (ضاحكا) ، أى أسرفت فى الاستدانة من الناشرين الذين تعاقدوا معى على روايات لم أكتبها بعد .

* (ضاحكا) بقيت نقطة، يقال إن عددًا من صغار الأدباء بالتحديد « لبواتقان ليجريفيل - واتبين أرجوا »، كانا يكتبان لك أو معك بعض رواياتك ؟.

- لم أنكر هذا، بل أشرت إلى ذلك فى صدر روايتى الأولى (الوارثة)، فى بدء عام ١٨٢٢، لقد اشتركنا نحن الثلاثة فى كتابة تلك الرواية؛ لكن بعد روايتين أو ثلاثة، كتبت بمفردى كل شيء.

قلت له : لو أردنا أن نلخص أهدافك نحو البشرية فى كل رواياتك، ماذا نقول ؟

فقال : إن القصاص والروائى يهتم بإسعاد الأفراد، إذ أن حظًّا من هذه السعادة تلزم لإصلاح أمر المجتمع؛ وظللت أحلم بذلك حتى رحلت فى ضحى الأربعاء ٢١ أغسطس ١٨٥٠.

قلت له : دعنى أتخير لك رأيًا آخر، لقد قال الأستاذ « جوبون » والأستاذ « توينبى » إن « بلزاك » فى رواياته عن « الكوميديا البشرية » كان يحض على الأخلاق الفاضلة، برغم أنه يصور قبح المجتمع ولؤم الناس، لقد كان « بلزاك » من الشجاعة والصراحة والجرأة، بحيث قال كلمة الحق فى أخلاق الناس، وفى الحياة والحب والخير والشر، « وبلزاك » يدعو قارئه إلى التفكير وترك له حرية الاختيار، لقد صور « بلزاك » حياة البشر من خلال عصره الجمهورى والملكى، فصور بذلك اصطراع النفوس المختلفة من أجل الارتقاء.

العقاد

لن نوغل هذه المرة بعيدًا فى الزمان أو المكان، فارسنا فى هذه الحلقة من الشخصيات المعاصرة، لم تفارق دنيانا إلا منذ سنوات قليلة. شخصية فريدة متعددة الجوانب، عبقرية العطاء؛ ويكفى أن نقول إنه الأستاذ « عباس محمود العقاد »؛ لكى تتفتح أمامنا آفاق الفكر العربى المعطاء بلا حدود. ويحار الإنسان كيف يستثمر هذا اللقاء القصير إلى أقصى حد ممكن مع عبقرية مثل عبقرية هذا « العقاد »؛ كيف نبدأ ؟.

قال « العقاد » : بما يخطر على بالك على الفور.

قلت : حسنًا، ما أكثر مواقفكم الفكرية العملاقة، وما أكثر ألقابكم التى منحها لكم، أو أطلقها عليكم، محبوكم وخصومكم

على السواء، لكن، ما هو أول موقف فكرى لكم كان له أثره فى حياتكم بعد ذلك ؟

قال : إنه موقف ضدَّ نفْسي ولصالِحها فى آنٍ واحد، فقد كانَ من السوابقِ التى أغتبطُ بها وأحمَد الله عليها أننى كنت - فيما أرجح - أول مُوظَفٍ مصرى استقال من وظيفة حكومية بمحضِ اختيارِه يوم كانت الاستقالة من الوظيفة والانتحار فى طبقة واحدة من الغَرابة وخَطَلَ الرأىِ عند الأكثرين. بل ربما كانت حوادثُ الاستقالة أندرُ من حوادثِ الانتحار.

* ولِم استقلت إذن ؟.

- أردتُ أن أكون ما يُسمي بالأديب المتفرغ، وكم يُسعدنى أن يَعتبر مؤرخو الأدب، أننى أولُ نَموذج عرفته مصر فى هذا التفرغ للأدب، منذُ « رِفاعة الطهطاوى » إلى « د. طه حسين »، حيث لم يسبْق أن وُجد واحد من الأعلام، كان يكسِبُ قُوتَه من فكرِه وأدبه، وقلمه.

* ما تعرفه الأجيال العربية أن « العقاد » هو نموذج الكاتب القصاص الذى شق طريقه فى الحياة بقلمه؛ لكن ما هى آثار هذا الموقف على حياتك وفكرك بعد ذلك ؟

- عود نفسى على الشدة وعلى عدم الخنوع لشىء أو لشخص؛ ولهذا فلم أرهب غير الله فى حياتِى. لقد كنت فى قلب ثورة سنة

١٩١٩ ؛ بل إنني توليت تحرير منشورات تلك الثورة لإلهاب مشاعر الجماهير ضدَّ المستعمر الأجنبي.

* يهمنا أن نتوقف أمام حرصك على شرف الفكر، وحرية الرأى، مثلا : كنت فى خصومة فكرية مع « د. طه حسين »، حول بعض القضايا الثقافية والأدبية، وتبادلت معه الهجوم عبر الصحف؛ لكنك اتخذت منه موقف المدافع والمؤيد بشرف، عندما هوجم بسبب كتابه (فى الشعر الجاهلى)، هل تستعيد معنا هذا الموقف المفيد للشبيبة والناشئة ؟

قالِ « العقاد » : قبل دفاعي عِن شخص « طه حُسين »، أو كتابه، كان دفاعى عن مبدأ آمنتُ به، وهو حريةُ الفكر التى تستحق أن نَحْميها من (هؤلاء الأوشاب الذين يزعمون أن لهم مبدأ يدعُون إليه، ورأيًا يُفصحونَ عنه).. فى حين أنهم أتباعُ خيال، عصفت بِعقولهم سمومُ الأوهام التى أدمنوها، فجمحَ بِهِم التفكيرُ إلى حيثُ لا يذهب إلا بالفكرُ الملتاث والطبعُ السَقيم. ولكنا لا نعتقدُ أنهم يُصدقون شيئًا مما يَهْزُرون به من هذه المبادئ والآراء، وإنما هى ذرائع يلجئون إليها للمشاغبة والعربدة.

* نصل إلى أعمال « العقاد » العبقرية أقصد طبعًا (عبقريات العقاد). قال البعض : إنك مجرد مؤرخ، وقال آخرون : إنك مجرد ناثر عظيم وحسب، ما هو ردك، أو تفسيرك للعبقريات ؟

- إننى أُستخدمُ ثلاثة مناهج مختلفة. فأنا حِين أكتبُ العبقريات الإسلامية، غيرى حين أترجم لهذهِ الشخصيات الإسلامية، غيرى حين أنشئ الدراسات والأبحاث، ولَعلَّ ما يربطُ بين عبقرياتى، وشخصياتى، ودراساتِى، هى صفتى كأديب مؤرخ، وأنا حريصٌ على أدبِ الفكرةِ الواعية.

* وعلى العموم، يمكن القول بأنك شديد الإعجاب بالبطولة - الفذة -

- ولم لا ! إن الإنسان الذى سبق الأجيال بأفكاره وأخلاقه، كشأن كُل حى فى مصارعة الطبيعة، يشعُر بفضلٍ من القوة فى بدنِه وتركيبه، وهكذا الفكرة الجديدة، إذا ملكت صاحبها دفعت به إلى مكافحة الموت لاستبقاء هذه الأفكار الجديدة. وهكذا تطور، بل، صُنِعَ تاريخُ البشرية، ببطولاتٍ فذة.

قلت : هل تسمح لنا أن نتصفح عبقرياتك، لنستوضح منك بعض النقاط حولها ؟، ولنبدأ (بعبقرية محمد). لقد أكدتم فيه « أنه ليس شرحًا للإسلام أو لبعضِ أحكامه، أو دفاعًا أو محاولة لرد هجوم خصومه؛ فهذه أغراض أخرى مستوفاة فى مواطن شتى أخرى ».

إذن لماذا كتبت (عبقرية محمد) ؟

- تقديرًا وإعجابًا لعبقرية « محمد » ﷺ، بالمقدار الذى يَدينُ به كلُ إنسان، وبالحق الذى يُثْبِتُ له الحب فى قلب كُل إنسان

وليس فى قلب كل مسلم فحسب ، فالنبى « محمد » هنا عظيم ، لأنه قدوة المقتدين ، فى المناقبِ التى يتمناها المخلصون لجميع الناس .

* لك رأى المعجزات والخوارق ! هل تذكره للآن ؟

- فى حديثى عن النبى « محمد » ، لم أعتمد على المعجزات والخوارق التى ينسبُها بعضُ المؤرخين إلى النبى الكريم ، لأن عظمة النبى ، تظهرُ فى أعماله وسياسته للأمور ، أكثر مما تظهرُ فى تلك المعجزات التى لا تنسجمُ مع رسالة « محمد » فى تحريرِ العقل من ربقة التقليد .

* وفى (عبقرية الصديق) ، نجدك ترسم صورة نفسية « لأبى بكر الصديق » ، ولعلها بدايتكم العلمية إلى المنهج النفسى فى تحليل البطولات ، أليس كذلك ؟ .

- إن البطولة الفردية القائمة على حُرية الاختيار ، تجدُها فى كُلِ عمل من أعمال « أبى بكر الصديق » ، فهو بشر عادى ، باستطاعتِه أن يكونَ كما يشاء بمكانتِه بين قومه فى (مكة) ، وبماله الوفير ، ومع ذلك تظهرُ بطولتهُ فى شجاعةِ الاختيار - إلى جانب النبى الكريم فيتخذُ موقفه مبكرًا - وهكذا - ، كان علىّ أن أرسُم صورة نفسية « للصديق أبو بكر » ، لكى أجلوَ خلائقه وبواعثَ أعماله ، وكُلَّ نيةٍ من نياته ، وهذا السرُ الذى نراه كامنًا فى كُل رأى يرتئيه ، وكُل قرار حاسم يستقر عليه ، ولهذا كان المَنهج النفسى سبيلى إلى تحليل ورسم بُطولات أبى بكر .

* وماذا عن منهجك فى (عبقرية عمر)؟

- إننى لا أدرى شخصية الخليفة «عمر بن الخطاب»، الذى هزَم القياصرةَ والأكاسرة، وإنما أنا أدرسُ عظمته التى جمعت القوَة والعدل، والرحمة والحزم، والتضحية، والحصافةَ وسدادَ الرأى، والغَيرةَ على الحق، والاستقامة، وقد عثرتُ على طبيعِة «عمر»، أو سرِ عبقريتِه، ووجدتُها، هو فى طبيعته، (كجندى).

قلت: ولِم.. الجندى بالذات؟

قال: لأن أهم الخصائص التى تتجمعُ لطبيعِة الجندى فى صِفتها المثلى هى: الشجاعة، والحزم، والصراحة، والخشونة، والغيرةَ على الشرف، والنجدة، والنخوُة، والنظامُ، والطاعة، وتقدير الواجب، والإيمانُ بالحب، وحبُ الإنجاز فى حدُود التبعاتِ والمسئوليات. ولهذا نجد أن إسلام «عُمرَ بنِ الخطاب»، كان عِزةً للمسلمين، وطورًا من أطوارِ تاريخ الدولة الإسلامية.

قلت: نستطيع أن نجد تشابهًا فى النظرة إلى حد كبير، فى عبقرياتك الأخرى، عن الإمام «على بن أبى طالب»، «خالد ابن الوليد»، «وعبقرية المسيح» و... كتابك الفذ عن «إبراهيم» أبى الأنبياء، ولكن سؤالى الآن، عن المرأة فى عبقرياتك، وذلك انطلاقًا من كتابيك عن «فاطمة الزهراء» «والسيدة عائشة»، أو (الصديقة بنت الصديق)، أود لو أوجزت لنا رأيك فى أهمية دور المرأة للمجتمع؟

قالَ « العقاد » : رأيى فى « فاطمة الزهراء » ، أن الحديثَ عن حياتها ، قد تُكتب له تراجم ، وليس ترجمةً واحدة فقد تكتب لها ترجمة ، لأنها (ابنةُ « محمد » ﷺ) ، أو لأنها زوجةُ « على ابن أبى طالب » ، أو لأنها (أُم « الحسن والحسين ») ، غير أننى كتبت عنها كتابى ، لأنها « فاطمة الزهراء » أولا ، ولأنها مصدر من مصادرِ القوة التاريخية ، التى تتابعتْ آثارها فى دعوات الخلافة ، منذ صَدْر الإسلامُ إلى الزَمن الأخير ، ويكفى أنها ابنة السيدة « خديجة » ، وابنةُ نبى ، وزوجة إمام ، وأم للشهيدين ، أى أن بصماتِها على التاريخ الإسلامى لها أهميتها .

* والسيدة « عائشة » ؟

– « عائشة » ، بنتُ « أبى بكر الصديق » ، وزوجة « النبى » ، وقد تفردت عن بنات جنسها برعاية خاصة ، فقد تربتْ على النعمة ، وشبتْ على العزة ، وهى فى رأيى ، تُمثل المرأة المسلمة فى أرفع مُثُلِها ، حيث تمثلها فى حقوقها ، وتمثلها فى مثاليتها الكريمة ، وتمثلها فى ثقافتها وذكائها .

* تبقى كتبك عن « الحسين أبو الشهداء » ، وذى النورين « عثمان بن عفان » ، « ومعاوية بن أبى سفيان » فى الميزان ، « وعمرو بن العاص » ، وداعى السماء « بلال بن رباح » ومطلع النور و... هنا أو لو ساعدتنا فى تقديم موجز سريع لكل من .. كتابك : (مطلع النور) ؟ .

- يدورُ حول البعثة النبوية، وما نُقدمها من أحوال العالم، والجزيرة العربية وأصورُ فيه طوالع البعثة المُحمدية، وقصةَ الإيمان، وكيف قضى على الشرك.

* وكتابك (الإنسان فى القرآن)؟.

- إنه فى جزءين كبيرين، عن عقيدةِ القرآن، ثم بحث عن نشأة الإنسان فى مذاهب الفكر والعلم، أو مذاهب الحَدَثِ والخَيال، وعلومِ الأجناس المختلفة.

* وكتابك: (المرأة فى القرآن)؟.

- إن الصفة التى وُصفت بها المرأةُ فى القرآن، هي الصفةُ التى خُلقت لها، وإن الحقوق والواجبات التى قررها القرآنُ للمرأة، قد أصلحت أخطاء العُصور العابرةِ فى كل أمة من أمم الحضاراتِ القديمة، والإسلام أكسَبِ المرأةَ منزلةً لم تكسبْها من قبل، ولم تأت بعد الإسلام حضارة تُغنى عما قررهُ الإسلام للمرأة.

* وكتابك: (الفلسفة القرآنية)؟.

قال **«العقاد»**: أوضحُ فيه، أن فلسفة القرآن، هى التى تُغنى الجماعة الإسلامية فى باب الاعتقاد، ولا تصدُنا عن سبيل المعرفةِ والتقدم، وخُلاصة كتابى هذا، أنه ليس للعلماء ولا للفلاسفة، أن يطلبوا من الدين، أكثر من أنه يحض على العلم إلى أبعد مدى، كما أن القرآن يُعلمنا النظَر إلى الأخلاق والحكومة والطبقات

والمرأة .. ، والعلاقات الدولية ، والقَدَرِ والتصوف والحياةِ الأخرى ، ومسألة الرُوح والفرائض .

* أصارحكم أن الوقت لن يتسع لمجرد ذكر ما بقى من أسماء كتبك العظيمة ، لذا آمل أن نتوقف لحظة أمام كتابك ؟ (التفكير فريضة إسلامية) .. كيف يكون ذلك ؟ .

– من مزايا القُرآن الكريم ، أنه دائمُ التنويه بالعقل والتعويلُ عليه فى أمر العقيدة وأمر التكليف ، وعلى سبيل المثال : يقول الله تعالى: (كذلك يبينُ الله لكم آياته لعلكم تعقلون)، وإذن فالإسلامُ فى خطاب دائم ومتكرر للعقل الواعىِ المستنير ، بما يدلل على احترامهِ للفكر وأهلِ الفكر .

قلت : مازال أمامنا عطاء « العقاد » ، فى مجالات الإبداع الأدبى ، قصتك الشهيرة (سارة) ، ودواوينك ذات الشهرة الأكبر ، والوقت للأسف لا يسعفنا ، لكى نلم كتابيك (شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى) ، (وعالم السدود والقيود) ، وكتابك (على الأثير) ، (والفصول) ، (وأبو نواس) وشاعر الغزل (عمر بن أبى ربيعة) ، (ورجعة أبى العلاء) ، (وجميل بثينة) ، (وابن الرومى) ، (والتعريف بشكسبير) ، (وعيد العلم) ، وغيرها وغيرها ... فقل لى ، ماذا نقول فى الختامِ عن عبقريتك وعبقرياتك وكتبك التى ستظل تجدد الفكر العربى وتعطى للشباب زادًا متجددًا ؟ .

قال العقاد : « إن على الأمم أن تحمىَ الحريَة الفكرية ، لتحمىَ نفسهَا من غوائل الذل والنفاقِ والغباء ، فهى حمايةٌ مفيدة لها ، عائدة بالخير والرفعة عليها ، ومطلوبة من أجل حسناتِها ومزاياها ، فى استكمال جوانبِ الشخصية ، والتعبير عن النفس الإنسانية ، ويكفى هذا لكى نعملَ جميعًا على حمايةِ حُريَة الفكر فى كُل أمة ، ولكل مخلوق من أبناء آدم ، لأن استكمالَ الحياة بحُرية الفكر ، واجبٌ لاشك فيه ، ولا حاجة به للبراهين » ..

عمر الخيام

هو الذى قال:

يـا عـالم الأسـرار علم اليقـين
يا كاشف الضـر عن البائسـين
يـا قـابـل الأعـذار فئـنـا إلى
ظلك فـاقبـل تـوبـة التـائبـين

مع صاحب الأبيات، أو بالأحرى الرباعيات نعبر الزمان والمكان، لنلتقى على ناصية التاريخ، نعود إلى الوراء تسعة قرون كاملة لنلتقى مع الشاعر الشهير «عمر الخيام».

قلت له: ومادامت الرباعيات هى أول ما يتبادر إلى الذهن عندما يذكر «الخيام» فليكن أول سؤال نطرحه عليه فى بداية اللقاء

عن الأسباب التى دعته إلى كتابتها ؟.

قال «الخيام»: لقد نظرت يمنة ويسرة، فإذا دول تقوم ودول تفنى، وإذا الكرم يضطرب فى النفوس، فصرت إلى خلوتى، أفكر فى حال الدنيا، وأجأر إلى الله أن يغفر ذنوبى، وإذا أردت منى سببًا محددًا بذاته للرباعيات، فإنى أقول إننى كنت أحاول بها أن أحل لغز الحياة.

* وهل وفقت ؟

- لا أدرى، الحكم لكم أنتم.

* ولد «الخيام» فى «خراسان» حوالى سنة ٤٣٣ هجرية، الموافق ١٠٤٠ ميلادية، فى عهد السلطان «أرطغرول»، أول (ملوك السلاجقة)، وذاعت شهرته فى عهد السلطان «ملك شاه»، وتوفى حوالى ٥١٧ هجرية - ١١٢٣م..

- لبست ثوب العيش لم استشر
وصرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضوه برغمى ولم
أدرك لماذا جئت، أين المفر؟

* أمن أجل هذا قالوا عنك أنك شاعر متشائم؟

تلبس بين الناس ثوب الرياء
ونحن فى قبضة كف القضاء

وكم سعينـــا نـرتجى مهـــربًـــا
فكـــان مسعـانـــا جميعًـــا هبـــاء

قلت له : اشتهرت باسم « عمر الخيام » ، فهل نطمع أن تقدم لنا اسمك بالكامل ؟

– « غياث الدين أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيام » ، ولدت فى « نيسابور » عاصمة خراسان .

* هل تذكـر أحد تلاميـذك وكان يدعـى « النـظامى السـمرقندى » ؟

قال : عندما رحلت كان فى حوالى الثلاثين من عمره ، وكان نابغة لفت انتباهى إليه .

* وبعد رحيلك أصدر عنك كتاباً بعنوان (جهاز مقاله) ، يقول الأستاذ الشاعر « أحمد رامى » إنه أقدم مصدر لتاريخك أنت شخصيًا .

– حقًا ؟ وماذا قال « النظامى السمرقندى » عنى ؟ .

* يقول :

* فى عام ٥٠٦ هجرية ، هبط « عمر بن الخيام » مدينة « بلخ » ، ونزل فى قصر أميرها « أبى سعد » (ويضيف) .

* وكنت أنا « النظامى السمرقندى » ، فى خدمة الأمير « أبى سعد » فسمعت حجة الحق « عمر بن الخيام » يقول :

* سيكون قبرى فى موضع تنتشر الأزهار عليه كل ربيع ... !

* قال عنك - الشهرزورى - فى كتابه (نزهة الأرواح).

* كان «عُمر الخيام» يلى «ابن سيناء» فى علوم الحكمة، وقد تأمل كتابًا فى «أصفهان» سبعَ مراتٍ فحفِظَه، ثم عاد إلى العاصمة «نيسابور» فأملاه، وكان «الخيام» يميل إلى التصنيف والتعليم، وله مختصر فى (الطبيعيات) ورسالةٌ فى (الوجود)، ورسالة فى (الكون)، (والتكليف)، وكان عالماً فى (الفقهِ واللغةِ والتاريخ)، وذاتَ مرةٍ سمعه «أبو الحسن الغزالى»، يتحدثُ عن عللِ اختلاف القراء على آية، فقال له الغزالى:

- أكثرَ اللهُ من أمثالكَ فى العلماء «يابنَ الخيام»، لم أكنْ أحسَبُ أنَ أحدًا يحفظُ ذلكَ من القُراء، فكيفَ بأحدِ الحكماء؟

* هل تذكر ذلك الآن «يابن الخيام»؟

- أذكر أننا كنا ثلاثة، «نظام الملك الطوسى، وحسن الصباح، وأنا.. عمر الخيام»، وكنا نحصل العلم فى «نيسابور»، وكنا زملاء الليل والنهار، فى الدراسة على الإمام «الموفق»، وقد تعاهدنا على أن يرعى من يؤتيه الحظ منا مكانًا ساميًا، يرعى (أخويه الآخرين).

* أشار شاعرنا «أحمد رامى» إلى هذه الحادثة فى ترجمته لربعياتك، وذلك نقلا عن كتاب (تاريخ كزبده)، «لَحمد الله قزوينى»، و(تذكرة الشعراء)، «لدولت شاه بن علاء».

وقال : إن زميلكم « نظام الملك الطوسى » أصبح وزير البلاد.

قال « الخيام » : وقصدناه فى « أصفهان » ، عازمين على أن نطالبه بأن يفى بما اتفقنا عليه ، وقد أكرم وفادتنا.

* هل تذكر أن « نظام الملك » ، اختصك من بين المال بمائتين وألف مثقال من الذهب ، وظللت أتقاضاها كل سنة إلى أن قتل « نظام الملك » سنة ٤٨٥ هجرية ، لكن أخبرنى يافتى ، هل جئت من عصرك القادم - كما تقول - لكى تذكرنى بما أخذته من مال « خراسان ».

* اسمح لى أن أذكر لك أن « القفطى » فى كتابه (تاريخ الحكماء) ، قال : إن « الخيام » ، كان يستحق مال الدولة لأنه إمام خراسان ، وعلامة الزمان ، يعلم علم اليونان ، ويحث على طلب الواحد الديان ، بتطهير الحركات البدنية ، لتنزيه النفس الإنسانية ، ولما وصل إلى بغداد سعى إليه أهل طريقته ، ثم ذهب ليحج لبيت الله ، ورجع من حجه إلى بلده خراسان ، وظل يروح إلى محل العبادة ويغدو ، ويكتم أسراره ، وينطبق عليه قوله فى إحدى رباعياته :

إن لم أكن أخلصت فى طاعتك
فإننى فئت إلى رحمتك
وإنما يشفع لى أننى
قد عشت لا أشرك فى وحدتك

– ما أذكره أننى قبل الحج وبعده، قضيت معظم حياتى فى «نيسابور» – مسقط رأسى – وكانت فى ذلك العهد غنية بالخيرات، خصبة التربة، وافرة الماء والمحصول، وكان فيها ست جامعات ومرصد بناه «نظام الملك»، وقد عشت فيها طالبًا وعالماً، وكنت محبًا للحياة، ومناعم الحياة، أتقلب فى أوساط العلماء، وآنس إلى عشرة الفقهاء، ويلتف حولى رهط من العظماء.

* موضوع يحير الكثيرين وهو: أنك درست العلوم (الإلهية، والفلسفة، والمنطق، والطبيعة) شأن إخواتك فى الجامعات الإسلامية فى ذلك العهد منذ حوالى تسعة قرون من الزمان، كما درست الطب ونبغت فيه، وطبقت علوم (الرياضة والفلك)، ثم واعذرنى، ثم نجد رباعياتك تكثر من الإشارة إلى الشراب والكأس، مثلا لك رباعية تقول فيها:

أين النديم السمح أين الصبوح ... فقد أمضى الهم قلبى الجريح
ثلاثة هن أحب المنى ... خمر وأنغام ووجه صبيح

قال: لقد وضعت نحو ثمانى كتب بين (الجبر، وكمياء الذهب، والفضة، وكليات الوجود، والكون)، ولوازم الأمكنة وميزان الحكم، ثم، (الرباعيات)، وهى نجوى نفسى الأسيرة، فلماذا لا تستوقفكم فيها إلا بعض أبيات تتحدث عن الخمر؟، وكانت مجرد رمز للإقبال على الحياة والاستمتاع مادامت قصيرة.

قلت : ولماذا شعرت – بعد ما وصلت إليه من (علم وفقه) بأن نفسك أسيرة ؟

– ربما عجلت دراستى (لفلسفة اليونان)، بوصولى إلى سؤال نفسى، لم خلقت، وكيف لا أستطيع الرحيل متى أردت ولم هبطت إلى الوجود ؟، وأصارحك الآن، بأنه مرت بى مرحلة صعبة من الشك والحيرة ، لكننى وجدت علاج روحى فى التعمق فى كتب الفقه، ورحلة الحج إلى بيت الله، فهرعت إلى رباعياتى أصوغها، وأبثها حقيقة أمرى، وأناجى الله طمعًا فى كرمه ولطفه وغفرانه، مثل رباعيتى :

يا من يحار الفهم فى قدرتك وتطلب النفس بحمى طاعتك
أسكرنى الإثم ولكننى صحوت بالآمال فى رحمتك

* هكذا قالوا عنك «يابن الخيام» فقد صحوت من نشوتك وشعرت بخطئك، وأنبت إلى الله تسأله الرحمة، وكنت بين ظلمة الشك، ونور اليقين، تعتقد بوحدة الروح، ولهذا جاءت رباعياتك سخرية مرة، من عيش الغرور، والتعلق بمتاع الحياة الزائل، وآثرت فى نهاية الأمر أن يكون مذهبًا بك إلى عالم الروح وكتبت أحلى رباعياتك فى استجداء رحمة الخالق وغفران الذى منه وإليه كل شىء (سبحانه وتعالى) رب العالمين..

يارب مهد لى سبيل الرشاد
واكتب لى الراحة بعد الجهاد

وأحـى فى نفـسي المـنى مثـلما

يحيى موات الأرض صوب العهاد

* سؤالى المعتاد، هو، ما هى هديتك لقراء هذا اللقاء؟

- يا عالم الأسرار علم اليقين

يا كاشف الضر عن البائسـين

يــاقـابـــل الأعـذار فئنــا إلى

ظلك فـاقبـل تـوبـة التـائبــين

ابن حزم الأندلسى

المكان : « قرطبة » .

والزمان : منتصف القرن الخامس الهجرى أى منذ أكثر من حوالى ألف سنة ، والحياة تسير من حولنا - فى ذلك الزمان - على مهل ، المواصلات من حولى هى الدواب والجياد بالذات ، وبعض العربات تجرها الثيران، أو الحمير والجياد أيضًا. والقباب والمساجد تلمع بلون الذهب ، والزخارف العربية تنتشر فى (واجهات) البيوت الأندلسية . والموسيقى تحلق مع الرياح بألحان عذاب ، وغناء « زبيدة » ، وأشعار « ابن زيدون » ونلتقى حالا بضيفنا اليوم ، « ابن حزم الأندلسى » .

سألنى : من أنت يافتى ؟ من أين جئت ؟ وما هذه الثياب

الغربية ؟ أين (عقالك)، وعباءتك ؟ كأنى بك غيرت وبدلت فى زى الفرنجة الذين ... ؟

قلت : ياسيدى ، أنا قادم إليك من عصر جاء بعدك بألف سنة، وسوف أحكى لك فيما بعد، تطور الملابس والمواصلات، وعن الزحام الشديد فى مدننا هذا الزمان لكن فيما بعد.

قال : (مناديًا) «يابن إسحاق»، ياصديقى «أحمد ابن إسحاق»، عجل بالله عليك ورحب معى بضيفنا ، من أنت يافتى ؟

قلت : أنا صحفى .. جئت لأجرى معكم حديثًا ، وفيما بعد سأشرح لكم أن فى عالمى أنا صحفًا ووسائل لإذاعة الكلام ، والأشعار ، وقصص الغرام ، والصواريخ أيضًا .

قال : (مندهشًا) ماذا تقول يافتى ؟ أسمعت يابن إسحاق (مذياع وصواريخ) ، وصحف .. و .. أين الحمام الزاجل ياولدى ؟ فقال صاحبه « ابن إسحاق » :

- دَعْنا أولا ، نَعرفْ بغية الفتى « يابن حزم » ماذا تريد بالضبط يابنى ؟ .

قلت : الكثير الكثير ، أولا لماذا غضب عليكما الأمير « سليمان الأموى» عام ٤٠٧ هجرية ، وحبسكما معًا.

قال « ابن حزم »: حكاية طويلة حقًا ، أوجزها له «يابن إسحاق» إلى أن انتهى من هذه الصفحة من كتابى ..

فقال لى « ابن إسحاق »: حَدَث أن خلعَ «على بنُ محمود

الحسنى » – المسمى بالملك الناصر ، بالاتفاق مع « خيران » صاحب المرية – خلع الأمير سليمانَ الأموى عام ٤٠٧ ، ولما كان « خيران » يظن أن « ابنَ حزم » وأنا ، نتآمر لصالح الأمويين فقد سجننا معًا فى حصن القصر ..

* ثم كيف خرجتما من هذا السجن ؟

– لما نُودى «بالمرتضى عبدالرحمن بن محمد» خليفةً فى مدينة « بلنسية أعادنا إلى قرطبة عام ٤٠٩ إبَّان حكمِ الخليفة « القاسم بن محمود » لكن .. لم تسأل عن ذلك بالذات ؟

* لأننى قرأت – فى زماننا نحن – أن « ابن حزم » ، وبصحبته « أحمد بن إسحاق » ، نُفيا فترة من الزمن ، وأن « ابن حزم » أتم (خاتمة رسالته عن الحب) فى هذا المنفى .

– وماذا قرأت أيضًا !

* قالوا ، إن (رسالة الحب) ، أو (طوق الحمامة) ، كتبها « ابن حزم » فى المنفى ، أى أنها من فراغ القلب ، وهم فى دهشة لا ستطاعته حفظ شيء أو كتابة مؤلفه هذا ، فى سنوات المنفى .

– إذن انتظر قليلا ريثما ينتهى « ابن حزم » من تسطير صفحتِه الأخيرة ، ثم ، تسمعُ منه قصتها مع كتاب الحب .

قلت : والآن وقد انتهى « ابن حزم » ، نريد أن نقف منه على تعريف الحب فى كتابه الشهير (طوق الحمامة) ، فما هى أقوالك ياسيدى « ابن حزم » ؟

قال : إن الحب أوله هزل، وآخره جد، وهو لا يوصف، بل لابد من معاناته حتى تعرفه، والدين لا ينكره، والشريعة لا تمنعه، إذ القلوب بيد الله عز وجل».

* وما هى أنواع المحبة «يابن حزم» ؟

- المحبة أنواع : وأفضلها محبة المتحابين فى الله عز وجل، ومحبة القرابة، ومحبة الألفة والاشتراك فى المطالب، ومحبة التصاحب والمعرفة، ومحبة البر بصفة المرء عند أخيه، و..

* لتسمح لى بمقاطعة سريعة.

- تفضل.

* أنت تقول إن كل أنواع الحب تتغير أسبابها إلا محبة العشق الصحيح، فهى التى لا فناء لها إلا بالموت.

- هذا صحيح، فما وجه اعتراضك يافتى ؟.

* شكرًا «لأحمد بن إسحاق» على هذا الإيضاح، وأعود إلى كتاب (فى تهذيب الأخلاق) «لابن حزم».

- إنه من أحب كتبى إلى نفسى، لكن قل لى، هل لقى رواجًا مثلما راج فى زمانى كتاب (طوق الحمامة).

* فى مجالات البحث الأكاديمى، فإن كل كتبك تجد إهتمامًا، بل هى تدرس فى كلمات وجامعات عربية.

- (ضاحكًا) أبشِر «يابن حزم»، فقد أحبك أبناء الأجيال الجديدة من العرب.. وعقدوا لك حلقات الدرس.

* الحقيقة أن «ابن حزم» فى كتابه (تهذيب الأخلاق)، سبق غيره من علماء النفس، حين رد الحب فى جميع صوره إلى سبب نفسي واحد، بدلا من الأسباب المتعددة. فالطمع هو محور الحب.

- هذا صحيح يافتى، فهناك أنواع من الحب تَختلف فى الظاهر، لكنها تَرجع كلُها إلى أصل واحد هو الطمعُ فيما يمكن نَيلهُ من المحبوب حتى من يتفانى فى حب الله، نجده لا يقنع بشيء دونه، لأنه يطمع دائماً فى المزيد من رضا الله.

* لحظة من فضلك - هنا - أريد إيضاحًا منك «يابن حزم».

- هل كل جيلك فى زمانك يافتى (عاجلون) هكذا.

* (ضاحكاً) إنهم يقولون على زماننا، إنه زمن السرعة، أو عصر الصواريخ.

- إذن تحققت أحلام «عباس بن فرناس».

* إلى حد أغرب وأعجب، سوف أشرحه لكم فى مناسبة أخرى، أما الآن، فدعنا من فضلك نصل إلى اتفاق حول الحب، والإيمان والأخلاق.

- إن صاحبى «ابن حزم»، كان واضحًا غايةَ الوضوح عندما قال عن هذه المسألة بالذات، فهو يقول بالحرف الواحد:

قال ابن حزم: «وترى المسلم يحب ابنة عمه مثلا حبًا مفرطًا على قدر طمعه فى أن تصير زوجة له، فى حين تجد الشخص الذى

لا يحق له الزواج من ابنة عمه - بسبب الرضاعة مثلا - تجده لا يحس نحوها بشيء إطلاقًا».

قلت: تريد إنهاء مسألة سبقك لعلماء النفس بقولك إن الطمع سبب خفى - أى نفسى - فى كل أنواع الحب.. فكيف ترين ذلك؟

- أنا ذهبت إلى ذلك، على أساس أن الطمع يكمن فى عاطفة الحب ذاتها وعلى أساس الطمع فى المحبوب يمكن القول، بأن الطمع أيضًا أنواع.

* شيء من الإيضاح لو سمحت.

- أدنى أطماع المحبة - ممن تحب - هو الخطوة منه، والرفعة لديه، والألفة عنده، إذا لم تطمع فى أكثر، وهذه غاية أطماع المحبين لله تعالى - نعبده طمعًا فى رضاه. وتقربًا إليه سبحانه، وهذا هو حب الله طمعًا فى مرضاة الله.

* وعلى مستوى البشر، وعلاقات الحب بينهم؟

- يزيد الطمع فى الحب بين البشر، فالإنسان يطمع فى حب صاحبه من باب المحادثة والمؤازرة، وهناك شخص آخر يحب صاحبه طمعًا فى سلطان صديقه هذا ونفوذه أما أقصى أنواع الحب بالطمع وأقساها، فهى طمع المحب فى المخالطة بالأعضاء مع من يحبها.

* هناك من يعترض معك . فى أرائك الخاصة بضرورة تجنب الأحياء الذين لا يبادلوننا حبا بحب .

- لا أرى سببًا للخلاف معى ، فأرائى ملخصها هو : أن الحب ليس اختيارًا ، بل اضطرارًا .

* الحب يكون اضطرارًا ، وليس اختيارًا ، كيف ؟ وأقول لك إن عالم نفسى شهير ، هو « فرويد » ومؤرخ كبير هو « برتراند راسل » ، نعرفهم نحن فى زماننا قالا بعكس ذلك ، بل أصرا على أن الحب برغم كل ألوانه يبدأ وينتهى باختيار دقيق ، وإن تم هذا الاختيار بطريقة اللاوعى - أو لا شعوريًا - أو فى العقل الباطن .

- أسمعت شيئًا عن هذا « ياأحمد بن إسحاق » ؟

* كلا ياصاحبى ، وكيف أسمع به ؟ ..

- إنه لأمر يثير دهشتى ، ولو عدت إلى كتابى (طوق الحمامة) ، وكتابى (فى تهذيب الأخلاق) لوجدتنى أقول بالحرف الواحد : « لا أمكن ألا تبذل نفسك لما بذلتها .. وإن صبر المحب على ذل المحبوبة ليس دناءة نفس ، لأن المحبوب شخص لا نظير له فى نظر المحب ، له أن يعفو ويرضى متى شاء » .

قلت له : معنى هذا أنك ترى أن تبادل العواطف بين المحبين ليس شرطًا للحب ؟

- للعواطف بين المحبين شروط وأسباب - فالوفاء عاطفة سامية - والوفاء أوجب الواجبات على المحِب، لأنه هو الذى بدأ بالمودّة، ولم يجبره أحد على ذلك، أما المحبوب فهو المقصود بالمحبة، وسعى إليه المحب، وإذن فالمحبوب مخير، مخير فى قبول حب المحب ومودته أو رفضها، فإن هو قبل فغاية الرجاء، وإن أبى فلا يستحق اللوم.

* لعل خير ختام لهذا اللقاء معكم هو أن تلخص لنا شروط الوفاء بين المحبين؟.

- للوفاء على المحبين شروط لازمة.

* أولها؟

- أن يحفظ المحب عهد محبوبه ويرعى غيبته.

* وثانيها؟

- أن تستوى علانية المحب مع سريرته نحو محبوبته.

* وثالثها؟

- أن يطوى المحب شره وينشر خيره على محبوبه.

* ورابعها؟

- أن يغطى المحب على عيوبه، بإصلاح هذه العيوب، ويحسن - بتشديد السين - أفعاله، ويتغافل عما يقع منه على سبيل الهفوة، ويرضى عما حمله، ولا يكثر على محبوبه بالطبع.

قلت : كل هذا مطلوب ممن يحب ، فما هو المطلوب - وفاءً - من المحبوب ؟ .

قال « ابن حزم » : على المحبوب إن ساواه فى المحبة ، كل ما على المحب من وفاء وعهود ، وإن كان دونه فى الحب والاهتمام ، فليس للمحب أن يكلف المحبوب ، الصعود إلى مرتبته ويكفى المحب والمحبوب فى حالة عدم تكافؤ العواطف ، وتساوى الوفاء عليهما: كتمان خبر هذا الحب ، وعليهما ألا يقابل أحدهما الآخر بما يكره ، أو يسيء إلى قيمة الحب كطريق للحياة بصفاء وطهارة

بيكاسو

المكان : « أسبانيا » .

والزمان : أواخر القرن الماضى .

وضيفنا الذى نلتقى معه على ناصية التاريخ فى حلقة اليوم ، فارس سلاحه فرشاته الساحرة ، جعل من هذه الفرشاة طوال سنوات عمره التسعين ، من سنة ١٨٨١ حتى سنة ١٩٧٣ ، قيثارة أحلامه ، ومرآة نفسه ، وظل يعزف بها ويشدو بالحب والسلام للقرن العشرين ، وأنه ترك بصمته وحكايته ، على جسر السلام إلى الأبد ، إنه أيها الإخوة ، الفنان الأسبانى العالمى « بيكاسو » .

قلت له : أود أن أبدأ حديثى معك حول نقطة بارزة فى مسار حياتك ، وهى الطموح وقدرته على تخطى كل العقبات ، كيف

تخلصنا الأحلام النبيلة من براثن الواقع ؟ ، وكيف تأخذنا إلى عالم من ثراء الوجدان والنفس ؟ مارأى رسامنا العظيم بيكاسو ؟

قال : عشت صعلوكًا فى شبابى الأول ، تركت دفء موطنى أسبانيا إلى أرصفة باريس وبردها الرهيب ، كان عمرى آنذاك تسع عشرة سنة . كان الجوع صديقًا دائمًا لى ، وكان فراشى هو خضرة الحدائق فى « التوليرى » و « غاية بولونيا » ، وبصفتى أسبانيًّا أصيْلًا فإن راحةِ القيلولة بعدَ الغداء كانت هامةً جدًا لى ، لكنْ حيث لاطعام فلا نومَ أيضًا؛ فأخذت أبحثُ عن عزائى وغذائى فى عالمِ المتاحفِ والألوان حُلْمِ عمرى .

* صدر عنك بعد رحيلك ، كتاب فى القاهرة عنوانه « بيكاسو .. المليونير الصعلوك » للكاتب المصرى الفنان كمال الملاخ .

– حقًّا؟ إنه لشيءٌ طيّبٌ أن يشعر الإنسان أن الناسِ وجَدوا فيما تَركه بعدَ مماتِه شيئًا مفيدًا يستحقُ الدرسَ والتأملُ .

* إنه يقول عن هذه المرحلة من حياتكَ ، أنك بعد ذلك ملكت مبلغ ٥٠٠ مليون جنيه ، وأنك لم تثق فى أى بنك ، ولذا لم تودع ثروتك الهائلة فى أىَ بنك ، هل هذا صحيح ؟

– دعنى أذكرُك بأننى أحترمُ تقاليدَ الريف الأسبانىِ القديمة ، والتى تعود إلى تاريخ القرون الوسطى .

* تقصد ، أنك مثلهم ، تميل لإخفاء أموالك تحت (البلاطة) ،

كما يقولون ؟ ولم لا ؟ المهمٌ عندى هو لوْحاتى وصورى ، إنها ثروتى الحقيقية ، إنها كَنْزى الوحيد .. الثمينُ جدًّا .

* ماذا تذكره الآن عن عائلتك الأسبانية ؟

- عائلتى كان اسمُها « رويز بلاسكون » ، وقد أخذتُ اسمَ لقب أمىٍّ « بيكاسُّو » ربما لأننى أحببتها طوال حياتى ، أى من مَوْلِدِى إلى مماتى .

* فى وسط فيض ذكرياتك الزاخر ، ولمعانك المبهر الذى لم يحظ به فنان فى حياته قبلك ، تود أن ندير حوارنا حول خلاصة تجربتك الحقيقية كفنان طموح ومعطاء .

- تفضل .. وسَل عمّا شئت ؟

* عشت طوال حياتك ، شديد التعلق بفنك ، هل أيقنت أن الإخلاص الدائم للفن أو العمل بشكل عام ، هو وحده طريق النجاح فى أدائه .

قال : بل هو الطموحُ بعينه ؛ فقد كنتُ لا أرغبُ فى الخروج ، لأنّى افضّلُ أن أعمل أن أظَلّ أعمل وأنتج ، أن أرسُمَ اللوحاتَ ، وأصممَ (الموزابيك) ، إن سنواتِ عمرى وأيامى مهما طالت فإن طموحى وأحلامى كانت أطول وأكبر ، لهذا ظللتُ مُخْلِصًا لعَملى طَوالَ الوقت .

قلت : وإلى جانب الإخلاص للعمل ؛ ماهو الشىء الآخر الضرورى لتحقيق الطموح الإنسانى ؟

- صدقنى إن الإنسان سيظل مدى حياته ، وربما بعدَ رحيلهِ ، فى أشد الحاجةِ إلى كل رَشفةِ حب ، إلى لمسة الحنانْ ، التى يُظهِرها لى من يُحبنى ؛ لقد أمضيت حياتى ؛ كل حياتى باحثًا عن الحب ، باحثًا عن الهدوء ، باحثًا عن السلام ؛ ولو طالَ بى العمر أكثر ، فسأظلُ أحِب زهرة ، وردة ، أو حتى (أكرة) باب ؛ فمِنَ المهم جدًّا للإنسان أن يشعرَ بعَلاقةٍ ما ، تَشُده إلى شىء ما ، إلى شخص ما ، إلى كائن ما .

قلت : نقطة أخرى جديرة بالحديث عنها معك الآن .

- ماهى ؟

قلت له : الدأب ، الاستمرار ، المواصلة ، عدم التوقف ، أو الاستسلام للحظات اليأس ، أعتقد أن ذلك لعب دورًا حاسمًا فى تحقيق طموحك ؟

قال : هذا صحيح إلى حدٍ كبير ، إنهم يقولون إن ثروتى لاتقل عن سبعمائة وخمسين مليون دولار .

حسنًا ، هل سألوا أنفسهم ، كيف حققتُ هذا الرقَم أو غيره ؟

* **قل لنا كيف ؟**

- بالدأب ، بالإصرار ، بالعنادِ على قهر الجوع واليأس ، بالتحدى الحقيقى لنفسى ولظروفى ، لقد كنتُ أرسم خمسمائة لوحة كل سنة أى أكثر من أربعين لوحة كل شهر .

* مثال رائع حقًا على التحدى ، والدأب والاستمرار فى

العمل ، بل وفى حب العمل ذاته ، دون ملل ، لكن هل يكفى الدأب وحده ، ألا يجب أن يكون الإنسان موهوبًا ؟

قال : مَعك حق ، بالطبع الموهبة هي الأساس ، لكنْ إلى جانبها لابد أن يكون هناك ذكاء ، لابد أن يُحْسَن الإنسان استخدام موهبته بذكاء ، إن صح التعبير ، لقد كنت - ربما بذكائى ، وربما بخبث الفلاح الأسبانى العجوز - ، أتعمدُ عندما أرسُم خمسمائةِ لوحةَ فى العامِ الواحد ، أنِ أكتفى ببيع قلة قليلةٍ منها ، حتى لا أغرق السوقَ بفنى ، فيملَّنى الناس وتجارُ اللوحات والمتاحف ، لقد كنت غزيرَ الإنتاج نعم ، لكننى كنت مُقِلًا فى البيع لأكتفى بربح خمسة عشر مليونًا من الدولارات ، كل عام ، إنها مسألةُ ذكاء أليس كذلك ؟

قلت : هل يمكن لنا أن نتحدث حول القصور والقلاع التى بنيتها .

قال : ضاحكا ولم لا ؟ إنّ وسائل الإعلام العَصْرية شَهَّرتْ بأموالى وقصورى ، ولعلها ضريبة الشهرة كما يقولون .

* دعنا نتحدث عن بيوتك من زاوية تهمنا ، وهى علاقة هذه البيوت بتحقيق طموحك ، ووصولك إلى قمة المجد الفنى .

- ربما لإحساسى بالقلق الذى صَحبِنى طَوالَ حياتى ، منذ عشتُ جائعًا على أرصفةِ باريس ، ربما لهذا القلق دَخلٌ كبيرٌ فى أن أحس أن لى أكثرَ من بيتٍ فاخر ، وقصرٍ كالقَلْعة ، احتمى به

لأواصل عملى ، لكن أحبَّ بيوتى (قَلعة فى باريس) يعود تاريخُها إلى القرون الوسطى ، إنها فوق قمةِ جبل ، غير قلعة أخرى تضم أربعين غرفة وقاعة فسيحةً جدًّا ، فى « فوفنارج » وفيلا فى « فالورى » ، وشقتين فى باريس . ومـزرعةٍ ضخمـةٍ فى « بولْسُلوب » ، هذه المزرعة لم أزرها ولا مرة واحدة مدة خمسة وعشرين عامًا .

قلت له : لماذا؟ هل تذكرك هذه المزرعة بشىء ما ، مزعج مثلا ؟

قال : لا أبدًا ، لكنّ اهتمامى بَعملى فى الرسمِ والنحتِ والتصوير ، لم يترك لى وقتًا لكى أتذكرها ؟

* ننتقل من قصورك إلى أولادك وحياتك الأسرية .

– ولدى الأكبر بأولو خمسة وعشرون عامًا ، من زوجتى الأولى وهى راقصة البالية الروسية « أولجا » ، وابنتى الكبرى « مايا » من زوجةٍ سويسرية عَمِلتْ موديلا لبعض لوحاتى ، ثم .. أولادى « كلود ، وبالوما » ، من زوجتِى « فرانسواز چيلو » وهناك زوجة أخرى « چاكلين » التى تزوجتُها فى بداية السبعِينات ، لقد كنتُ سعيدًا معها .

* لقد بحثت طويلا بحثًا مرهقًا عن الحب والحنان ، ولعل هذا هو سر تعدد زوجاتك ، فهل استطعت أن تجد السعادة ؟

– لو قلتُ نعم . فإن الحقيقة ليستَ مَعى كلَها ، ولو قلت لا

فإن الصدق سيبعُد عنى قليلا وربما كثيرًا .

* هل تحب أن نعود معك إلى بداية طموحك ، ونقطة البداية فى بناء مجدك العالمى ؟

- إلى طفولتى ؟ ..

ثم أضاف : وبدأت طموحاتى فى فترة طفولتى منذ الخامس والعشرين من أكتوبر عام ١٨٨١ ، كان كل زملائى الأولاد والبنات يتعلمون الأبجدية ، وحروف الكلام ، واللغات ، وأنا أرسم كثيرًا ، أرسُم أى شىء وكل شىء تلاحظه عيناى ، وتدوِنه ذاكرتى ومخيِّلتىَ الصغيرة ، إنهم يؤكدونَ لى أننى كنت التلميذ الوحيدَ فى مدرستى ، الذى بدأ يَرسُم قبلَ أن يكتب ، وأنا أصدقهم ؟ .

قلت : هل نسينا الإشارة إلى مايسمى بالغرور ؟

.. يصفك بعض النقاد والمؤرخين بالغرور ؟

قال « بيكاسو » : لقد دأبوا على ذلك فعلا ، وكنت أردِّدُ دائمًا ، إن القليلَ من الغرور لايَضر ، مادامَ لا يقيمُ عازلاً يَفصِلُنى عن الناس ، ومشاعرهم البسيطة .

قلت : سعيًا وراء إظهار أثر البيئة الأولى على سلوك الإنسان عامة ، والفنان بصفة خاصة ، أسألك عن أثر رحيلك مع أبويك من جنوب أسبانيا إلى دفء برشلونة ؟

قال : فى بَرْشلُونة ، كان الحظ يَعِدُنى بأن أكون مُدرسًا فى مَعهِد الفُنون ، لكنّ عمرى كان أربع عشرة سنة آنذاك ، وشدَّتنى

مصارعة الثيران ، والضَجيجُ والضوضاء ؛ والمدينة أوسع وأكبر ؛ وبدأ شيء جديد يحدُث لى ، إن دموية مصارعةِ الثيران زرعت اللون الأحمرَ فى وجدانى ، وبالمناسبة فإن الألوان تلعب دورًا رئيسيًا فى إنتاجى الفنى حتى أن النقاد كانوا يقسمون لوحاتى إلى مراحل كل منها مرتبط بلون غالب متميز مثل مرحلة اللون الأزرقِ والأخضر والأسود .. وبدأت أفهم قسوةَ الألمَ ، النَشوة ، الموت ، الحياة ، كلها مشاهدُ تتوالى أمامى فى حَلَبةِ المصارعة أسمعُها ، أحسها ، أشعر بها ، أشمها ، أشربُها ، إنها لُعبةُ الحياةِ والموتِ .. من أجل ماذا ؟ مجردُ الترفيه ؟ أم تُراها ممارسة حبِ البقاء لدى الإنسانِ ، والنور ؛ والطبيعة ؟ ، هذه هى إسبانيا الذكريات ، الطفولة ، الصبا ، بدايةُ النُضج ، إنها خلاصةُ وطنِى الأول .. وفلسفتى فى الحياة ، الناس يشترون الخوف ، ويشترون اللذة بالعذاب .

– للأسف ، أوشك لقاؤنا على نهايته ، ولدى سؤال تقليدى ، هو ، ماهى خلاصة رحلة عمرِك ؟

قال : إذا كانت الحياة تَفرضُ على بعض الناس ، البحث المضْنَى عن الحنان والحب ، فعلينا جميعًا أن نكون دائمًا أوفياء ، لقد وجدت عزائى وسعادتى ، فى وفائى لموْطِنى أسبانيا ، لأنه سر نجاحى وطُموحى ، ولولا موطِنى وفلسفُته وحضارتُه ، لما نجحت فى تقديم شيء يُسعِدُ البشرية ..

أفلاطون

* من الأقوال الشائعة .. أن هناك نوعًا من الحب ، اسمه الحب الأفلاطونى ، وبعضهم يقول إنه الحب الخيالى ، أو حب لا يوجد إلا في مدينة خيالية اسمها جمهورية (أفلاطون) بنفسه ، وفى عصرنا هذا نقول إن « أفلاطون » قد ولد سنة ٤٢٨ قبل مولد « المسيح » ، لكن « أفلاطون » يقول شيئًا آخر :

– عندما ولدت أنا ، كان أستاذى « سقراط » قد نيف على الخمسين ، فكان أثر الحوادث التى امتلأ بها الثلث الأخير من القرن الخامس .. ق . م . حيث كان أثر الحوادث مختلفًا فى نفس الشيخ المجرب « سقراط » ، وفى نفس الشاب الحدث الذى هو أنا أفلاطون .

* وكيف كان ذلك ، ومعذرة فالمسافة بيننا أكثر من ألفى سنة ، فدعنا نعش معك بعض ملامح عصرك ذاك .

– كانت هناك حرب رهيبة اسمها حرب « بيلوبونيز » (التى نشبت بين أثينا وإسبرطا) ، ولم تلبث أن شملت بلاد اليونان ، وأسيا الصغرى ، وإيطاليا وصقلية ، ثم بلاد الفرس ؛ وعلى هذا النحو حدث اضطراب عالمى استمر ربع قرن من الزمن، وأزهقت فيها النفوس ، وسفكت الدماء ، ودمرت المدن ، وكان لها آثار أخرى أشد على حياة الإنسانية جمعاء .

قلت له : هذه هى إذن الأحداث التى اضطر لها شيخك « سقراط » ، إذن ، ماهو موقفك أنت ياسيد « أفلاطون » ؟

قال : أود أولا أن نتفق على أن الإنسانية منقسمة أبدًا إلى الشيوخ والشباب ، وأثر الحادثة المعينة فى نفس الشيخ ، غيره فى نفس الشاب ، ومن هنا كان الاختلاف بين الأجيال ، ومن هنا أيضًا كان تطور الإنسانية المطرد .

قلت : له عظيم ، لكن ، تلك الحرب التى نشبت بين (أثينا وأسبرطا) على عهدك كانت نهاية عهد وبداية عهد علمى آخر .. أليس كذلك ؟

قال : كان العلم قد بلغ بالإنسان حد القوة الجامحة ، بلا حدود ، لكن تلك الحرب أظهرت فساد القديم وأدت إلى ظهور الحاجة الشديدة إلى نظم وعقائد تعيد الاستقرار إلى نفوس الناس ،

وتعيد الأسس السليمة لبناء المجتمعات ، على أساس ديمقراطى .

* يسجل البعض دهشتهم من كونك ابنا لأسرة ارستقراطية ، بل إن أباك ينتهى نسبه إلى « كدروس » آخر ملوك أثينا ، فكيف اتجه تفكيرك إلى النظام الديمقراطى .

- لأننى رأيت النظام الأرستقراطى الذى تنتسب إليه أسرتى قد اقترف فى أثينا ضروبًا من الآثام لاسبيل إلى إنكارها ، كما أننى ولدت طفلا فى الحروب ، وشاركت شابًا فى أتونها ، ولبثت فى حيرة من أمرى زمنا غير قليل ، أفكر فى النظام الذى يلائم الحياة الإنسانية ، ويبرأ من هذه الآثام ، ولهذا ، عندما بلغت العشرين من عمرى اتصلت « بسقراط » ولازمته ثمانية أعوام أو تسعة .

* لاشك أن هذه الصحبة قد تركت أثارًا عميقة فى نفسك وفى أفكارك . يقال إنها أعطتك الكثير من الحكمة ، أهذا صحيح أم أنه ضرب من خيال بعض المؤرخين ؟

- إن الفلسفة اليونانية -(عامة) - كانت أبدا فى عراك فكرى متصل ، ولعلك تفهم كيف اتفقت أفكارى واختلفت فى نفس الوقت مع شيخى « سقراط » ، فهو لم يكن أقل منى ميلا للديمقراطية ، ولم يكن أقل منى كرهًا للارستقراطية ، ولكن كان شيخًا يقترب من نهايته ، وكان متخوفًا من أولئك الذين يزحمون الحياة بالسفسطة الفارغة ، ولايهيئون الحياة لأسس جديدة بريئة من الاضطراب .

* تعرف أنه ظهرت فى أثينا على أيامك طبقة من (السوفسطائيين) الذين كانوا يذيعون الشك ، ويؤيدون المنفعة الخاصة ، وكان يهمهم انتشار الاضطراب فى نفوس الجماهير ، لكن ، ما أثر ذلك على طُموحك أنت ؟

- لعلك تعرف أن شكوك (السوفسطائيين) أدت إلى تلفيق قضية إلى شيخى « سقراط » انتهت بالقضاء عليه وموته ؟ ومن هنا اشتد سخطى على أثينا وعلى نظامها الديمقراطى ذاته فهاجرت فيمن هاجر من تلاميذ « سقراط » ، ذهبت أولا إلى مدينة قريبة من « أثينا » تدعى « بجار » ثم بدأت فى سياحة طويلة زرت فيها آسيا الصغرى ومصر وبرقه .

قلت : ذكرت فى بعض كتبك أن زيارتك لمصر تركت فى نفسك أثرًا قويًا .

- بل تركت آثارًا وليس أثرًا واحدًا ، فقد شاهدت فى بلاد مصر أثار تلك الحضارة الضخمة التى كان يتحدث بها اليونان فى إعجاب لاحد له ، ولقد حاولت أن أفهم هذه الحضارة المصرية العريقة ولكننى لم أفهم كل شىء عنها، إذ لم أكن أعرف اللغة المصرية ، ولم أكن أتحدث إلى المصريين مباشرة ؛ وإنما عن طريق بعض اليونانيين الذين لقيتهم فى مصر .

* والآن ، ماذا يمكن أن تذكره لنا عن فلسفة أفلاطون ؟

– أولاً ، أنا كاتب ، ناثر ، ولى آثار فى النثر الأدبى اليونانى ، ولى دراسات فى فلسفة الشعر والخيال ..و ..

* كاتبنا « د . طه حسين » طبعًا أنت لم تسمع به ، لأنك من زمن يفصل بينك وبينه أكثر من ألفى سنة ، المهم أنه قال عنك . لايعرف تاريخ الأدب القديم شاعرًا كان له من قوة الخيال ولطفه وسحره وسلطانه على النفوس ، مثل « أفلاطون » ، ونحن نعلم أن كل إنسان مهما يكن حظه من الرقى العقلى ، ومهما تكن جنسيته وحضارته يستطيع إذا قرأ « أفلاطون » أن يجد فيه لذة لاتَعدِ لها لذة .

– له شكرى وتقديرى ..

* أتوقف لحظة أمام نظرتك للمثل الأعلى للإنسانية ، وعن فلسفتك فى الجمال والحب والخير ، ماذا تراك تذكر من هذا وذاك الآن ؟

– أنا تعلمت الكثير من شيخى وأستاذى « سقراط » ، وخاصة من قولته : « أعرف نفسك بنفسك » ، كما تعلمت منه فن الحوار ، وكتبت قَصصًا تمثيليًّا كثيرًا ، فكتبى كلها عبارة عن مجلس من المجالس ، يجتمع فيه الناس حول « سقِراط » ، فيتحدثون ، وينتهى بهم الحديث إلى موضوع من الموضوعات ذات الأهمية فيتحاورون فيه ، ويشرف « سقراط » على هذا الحوار ، ويظل بنا ينقلنا من موضوع إلى موضوع ، ومن مسألة إلى مسألة ، حتى

ينتهى بنا إلى النتيجة الفلسفية التى كان يريد إثباتها .

* إذن معهم حق أولئك الذين قالوا إن « أفلاطون » لم يخترع الحوار التمثيلى .

– كان « سقراط » متحدثًا ، أما أنا فكنت منشئًا ، وصحيح ، إننى لم أخترع الحوار اختراعًا وإنما تأثرت فيه بمؤثرين اثنين .

* وهما ؟

قال « أفلاطون » : فن التمثيل الذى بلغ أقصى ما ينتظر له من رقى فى عصرى ، وأثر فى حياة الناس فى « أثينا » القديمة ، ويرجع تأثيره إلى فن الحوار المحزن والمضحك ؛ أما السبب الثانى فهو مجالس الحوار حول « سقراط » كما ذكرت من قبل .

* نعود إلى خلاصة فلسفتك فى الحياة ، والناس ، والحب ، والجمال ، والخير .

– هذا ميدان واسع ياولدى ؛ إن الخير مصدره الإله ، الإله هو مصدر الكون كله ، ولهذا ينبغي أن تكون فكرة الخير هى مصدر السعادة وهى المثل الأعلى الذى يطمح إليه الإنسان فى حياته .

قلت : هل تسمح أن توضح لنا ماذا تعنى ياسيد « أفلاطون » بقولك : « إن الأخلاق ليست عملا ، وإنما هى علم » .

قال : بل قل إن « أفلاطون » لايفرق فى الأخلاق بين العلم والعمل ، فأنا أؤكد أن مصدر مانتورط فيه من الرذائل والآثام ، إنما

هو جهلنا بالخير ، وقصورنا عن إدراكه ، فإذا أزيل هذا الجهل وأتيحت لنا القوة التى تمكننا من إدراك الخير ومشاهدته ، فنحن بمأمن من الرذائل ومن الآثام ؛ وخلاصة رأيى ، إن الإنسان لا يقدم على الشر وهو يعلم أنه شر ، وينصرف عن الخير وهو يعلم أنه خير ، إلا إذا كان شيئاً آخر غير الإنسان العاقل » .

د . محمد حسين هيكل

* إن ذكرى الكُتاب والمفكرين ، أجدر من كل ذكرى سواها بالحياة والخلود ، فالكُتّاب هم كلمة الحق ، وكلمة الحق ، هى روح الحياة الخالدة ، هذه الكلمات .. للأديب الروائى ، والصحفى ، والمفكر الكبير الدكتور « محمد حسين هيكل » . رائد الرواية المصرية والعربية ، منذ أصدر روايته الخالدة (زينب) عام ١٩١٠ ، ومنذ تصدى لعدة قضايا هامة فى تاريخ العرب المعاصر ، وحسبا بفكره المرتكز .

قلت له : « د . هيكل » ، كل من قرأ كتابك الجليل ، (حياة محمد) ، يشعر أن هناك دافعًا قويًّا حفزك إلى التوفر على هذه الدراسة وإخراجها على النحو الذى خرجت به .

قال : لقد وجدت كبار أدباء الغرب يهتمون بالتاريخ الإسلامى ، وإن لم تربطهم بالوطن العربى روابط الأصل والنشأة ؛ وقد حفزنى هذا إلى أن أكون أكثر وفاءً لدينى ، وللتراث الإسلامى والعربى العريق ، كذلك لأنني فى انشغالى السياسى بأحداث ١٩١٩ ، ومقاومة الاستعمار الإنجليزى والفرنسى للمنطقة العربية ، وجدت أن إلقاء الأضواء على جوهر الإسلام وتعاليمه ، هى خير وسيلة للدعوة إلى حرية الأوطان ، وحقوق الأفراد ، وحرية الفكر ، ورقى التعليم ، هى تأصيل لكل مايعلو على الفرد والجماعة بالخير .

قلت : « د. هيكل » . لعله يسعدك أن تعلم أن الباحث الألمانى « باير يوهانز » ، تخصص فى دراسة إنتاجك ، وحصل على درجة الدكتوراه فى أدب وفكر « د . هيكل » فى عام ١٩٦٥ ، من جامعة برلين ، لكنه يرى أنك كنت تعبر فى كتبك ومواقفك عن طبقة بذاتها ، وعن نظرة إقليمية لوطنك ، وأنك تأثرت بفكر الليبراليين الإنجليز . فتحولت إلى عدة مواقف سياسية متعارضة .. إلخ ، ماهو رأيكم ؟

– إن الباحث قد وقع ولاشك فى تناقض مع نفسه ، ربما لعدم سبره أغوار الشخصية المصرية الإسلامية ، فإن العقيدة الإسلامية عندى تحض على طلب العلم ، والعلماء عند المسلمين هم رجال الدين وأساس العلم التطور والتجديد ، ولذلك فلم أقفل على نفسى

باب الاجتهاد ، بل رفضت الجمود ، وظللت أنادى بأن الإسلام دين يسد – دائمًا وأبدًا – حاجات كل البشر ، هذه نقطة الارتكاز فى حياتى وكتبى ، لم يكن يعنينى شىء آخر من يمين أو يسار ، أو طبقة أو حزب ؛ ومنها سوف نجد أننى حولت موقف صحيفة (الجريدة) ، من صحيفة حزبية تصدر فى عهد الاحتلال ، إلى جريدة حرة تعبر عن لسان حزب الأمة ، أول الأحزاب السياسية فى مطلع هذا القرن ، لقد حولت (الجريدة) إلى مدرسة فكرية لها أفكارها ونظرياتها فى التجديد ، وشارك فى تحريرها كوكبة من ألمع مفكرى الإسلام والعروبة منهم مثلا : « لطفى السيد » أستاذ الجيل .

* هل يحسم هذه المسألة أن نستمع إلى شهادة الشيخ « على عبد الرازق » فيها ؟

– آه ، الشيخ « على عبد الرازق » طبعًا وشهادته وثيقة أعتز بها ، فقد قال :

* « إن « د . هيكل » ، يتجه بكل مشاعره بفكر خالص نحو العقيدة الإسلامية ، ولا يشوبه فى ذلك أى انحراف إلى اليمين ولا إلى اليسار ، تجد ذلك فى آثاره الأدبية والفكرية بصورة مباشرة وغير مباشرة » .

قلت : عظيم ، ولنعد الآن إلى بعض معالم سيرتك الذاتية : أين كانت البداية ومتى ؟

قال : فى العشرين من أغسطس عام ١٨٨٨ ، ولدت بقرية (كفر الغنام) مركز السنبلاوين دقهلية مصر ، لأبوين من صميم الريف ، كان والدى من أثرياء الريف ، وقد رسمت صورة لشخصيته من خلال شخصية « السيد محمود ، والد حامد » ، بطل روايتى (زينب) .

* قلت عنه « إنه صاحب ضياع كثيرة » ، ورب عائلة عريضة ؛ وكان من أطيب الناس قلبًا وأصفاهم سريرة ، إلخ . هذا عن والدك ، فماذا عن مقومات شخصيتك أنت ؟

- حفظت القرآن الكريم فى كتاب « الشيخ إبراهيم جاد » وأنا فى مرحلة الطفولة ، وكان لهذا أثر كبير فى تشكيل حياتى واهتماماتى كلها بعد ذلك .

* هل تذكر العلقة التى نلتها من الشيخ « إبراهيم جاد » .

قال (ضاحكًا) : نعم أذكر ، لكن كيف عرفت أنت ؟

* لقد وصفتها أنت فيها بعد فى مقالك بجريدة (الشعور) عام ١٩١٥ ، يوم أن ضربك لأنك نسيت أن تأخذ نصف بريزة من والدك له .

- (تمام) ، لقد ضربنى علقة ممتازة ، وأنذرنى إن لم أحفظ (لوحى) قبل الإفطار فسيضربنى مرة أخرى ، وبالطبع لم أحفظ لضيق الوقت ولاضطرابى ، وأخذت العلقة الثانية .

* متى بدأ اهتمامك بالصحافة ؟

- من وقت مبكر جدًا ، فى سنة ١٩٠٥ أصدرت أول مجلة مجانية كنت أوزعها بنفسى فى قريتنا .

* كيف ؟

- كنت قد حصلت فى ذلك العام ١٩٠٥ على البكالوريا ، وجئت من القاهرة إلى كفر غنام لأقضى العطلة الصيفية ، وكنت أقضى كل وقتى فى القراءة والكتابة ، وأصدرت أول مجلة فى القرية وكانِ اسمها (الفضيلة) ، وكنت أطبعها علي البالوظة وأوزعها على أهالى كفر غنام مجانًا وعلى القرى المجاورة لها .

* من له الفضل إذن فى تنمية هذه الموهبة الصحفية المبكرة ، حتى أصبحت صاحب جريدة حقيقة ورئيسًا للتحرير فيها بعد ؟

- الفضل فى ذلك يرجع إلى صلة القرابة بينى وبين أستاذ الجيل (لطفى السيد) ، وتشجيعه لى على الكتابة فى الجريدة ، وتوجيهه المستمر لى فى تحصيل الثقافة والمعرفة ، وفهم ودراسة أمور السياسة ، لقد كانت بيننا صلة قرابة تعمقت أكثر بالصلات الفكرية والثقافية بيننا .

* ألهذا ، سجلت هذا الأثر فى كتابك (أوقات الفراغ) الذى أهديته لأستاذك « لطفى السيد » ؟

- وما الحياة إن خلت من الوفاء ياسيدى ؟ إن « لطفى السيد » له الفضل الأول ، فى تعليم من أسعدهم الحظ مثلى ، بالاستماع إليه ، وجعلتنا نقضى أوقات فراغنا فيها يعرض لنا من

النظريات بسبب عملنا وفى أثناء أحاديثنا ومطالعاتنا ، وله الفضل أيضًا أن جعل (الجريدة) ، ميدانًا لما تسيله القلوب والعقول على الأقلام من ثمرات الفكر فى أوقات الفراغ ، وكنت أنا ممن شملهم فضل « لطفى السيد » ، وجعلنى أنشر كتاباتى فى (الجريدة) ، أيام كنت أطلب العلم فى مصر وفى أوربا ، وحين كنت محاميًا .

* نعم ، وما الحياة إن خلت من الوفاء ياسيدى ، دعنا نتناول ظاهرة أخرى تحتاج إلى تفسير فى العصر الذى نشأتم فيه .

– ماذا تعنى ؟

* لقد نشأت فى وسط كوكبة لامعه تضم : « طه حسين ، والعقاد ، وعبد القادر حمزة ، وعبد الرحمن شكرى ، وتوفيق دياب ، وإبراهيم المازنى ، ومصطفى عبد الرازق ، وغيرهم » من كبار المفكرين ؛ وسؤالى هو : كيف أسهمت ظروف المجتمع فى إيجاد هذه الكوكبة من نجوم الفكر والثقافة والأدب ؟

قال « **د. هيكل** » : كانت الثقافة على أيامنا جدًّا واجتهادًا، ولم تكن ترفًا أو لهوًا ، ومن شاء حظهم دخول الجامعات ، درسوا بجدية على أساتذة جادين ، يثيرون الخيال والحوار الخلاق ، حول شتى الأمور بحرية وابتكار ، كانت الصحافة كذلك منبرًا حيًا ، تتصارع من فوقه كل الأفكار ، منها ما أرسله إليها من « باريس » تحت عنوان (شهورى الأولى فى باريس) فى ١٤ ديسمبر ١٩٠٩ ، ومنها مايحلق إليه فكر وخيال « طه حسين ، والعقاد ،

عبد الرازق ، وغيرهم » ، كانوا وكنا جميعًا فى سن الشباب الطموح ، ووجدنا أستاذًا يشد من أزرنا ، ويحلق مع طموحنا الكبير دون تعويق .

قلت : من أرائك المفيدة للشباب أتوقف أمام رأى لك فى أهمية (الأنفة والحياء) للإنسان هل تذكر ما قلته فى ذلك ؟

قال : لقد تعلمت من حياتى العملية ، حياة الاستقلال ، بكل معانى الكلمة ، وهذا ما أكدته لى دراساتى العليا ، وقراءاتى فى الفلسفة والآداب والقانون ؛ فأدركت أن الكاتب فلذة من ضمير الإنسانية ، وأن ضمير الإنسانية باق مابقى الدهر ، بالأنفة والكبرياء ، أى بوصول الفرد إلى درجة من الاعتزاز بالنفس وبالرأى ، وأن الإنسان إذا تخلى عن أنفته وحياته ، فإنه يتخلى عن قدر كبير من كرامته .

* معك حق ، وخاصة وأن حديثك عن الحياء ، ينتهى بقيمة فاضلة أخرى وهى : (ضرورة الصدق والإخلاص للإنسان فى حياته مع الآخرين) ، وهذا يأخذ فى مرة أخرى إلى الإيمان ، إيمانك بالعقيدة الإسلامية ، ترى ماهو الدور المؤثر للمفكر الإسلامى ؟

– فى كتابى (حياة محمد) ، و(فى منزل الوحى) ، كما فى روايتى (زينب) ، كنت أشد حرصًا على (روح الإيمان) ، فى كل كتاباتى ؛ بل وزاد إيمانى بعقيدتى الإسلامية بعد أن سافرت إلى « فرنسا » لاستكمال دراساتى العليا ، وتأكدت من أن الطريق

السليم لتأصيل الشخصية للفرد والأمة إنما هو : (الماضى الكريم ، والحضارة العريقة التى كانت ثمرة لتفهم الدين الاسلامي ، وغرسًا من عمل الرسول الكريم والدين) ، عندى دين قويم ، وصراط مستقيم ، يؤدى إلى الرقى والازدهار ؛ هذا ماعرفته بحقيقة القلب والعقل .

* لكنك صرفت بعض وقتك لمحاولة التوفيق بين العلم، والدين، ربما لأن بعض المستشرقين قد أساءوا تفسير بعض جوانب الشخصية الإسلامية .

– هذا صحيح ، ومن هنا ، فمن الأسس التى كتبتها لتحقيق الانسجام بين الدين والعلم ، أن الدين يقرر المثل الأعلى لقواعد الإيمان التى يجب أن يأخذ الناس بها حياتهم ، والعلم يقرر الواقع فى حياة الوجود ، ويرسم تطور الحياة فى سبيل سيرها نحو مانظنه الكمال ، لكن من المؤكد أن الكمال الذى يدعو إليه الدين الإسلامى هو كمال مقرر القواعد ، راسخ الأركان ، لايمكن أن يتغير أو يتبدل ، بل إن العقيدة الإسلامية تتميز بين العقائد الأخرى بأنها تتناول أمور الدين وأمور الدنيا ، وتحض على طلب العلم ، فالعلماء عند المسلمين هم رجال الدين ، كما سبق وأشرت إلى ذلك .

* لعل سؤالى الأخير – فى هذه العجالة – يكون عن قصتك الطويلة (زينب) باعتبارها روايتك الأولى ، ولكن أيضًا على حد تعبير « يحيى حقى » وغيره من كبار الدارسين والرواد للقصة

الطويلة الأولى ، وأول رواية عربية على القواعد الحديثة للفن الروائى شكلا ومضمونًا ؛ كيف أقدمت على التجربة ؟

قال : مابين أبريل ١٩١٠ ومارس ١٩١١ كتبت قصتى (زينب) بعد تدبر غير قليل ، وبتمهل محمود ، وظلت صفحاتها تصحبنى فى أسفارى بين « باريس ، ولندن وجنيف » فيجدد التنقل همتى ، ويلون أسلوبى ، وحين كنت فى « سويسرا » ، إذا بهرنى منظر من مناظرها الساحرة ، أسرع إلى كراسة (زينب) وأنسى إلى جانبها منظر الجبل والبحيرة والأشجار وأستعيد مناظر ريفنا المصرى وجمال خضرته النادرة .

* وهكذا ، ولدت القصة الطويلة ، أم الرواية العربية الحديث . منذ ١٩١٠ ، وحتى نهاية التطور الفنى للرواية العربية .

- قلت « دكتور هيكل » فى ختام لقائنا ماهى السطور التى ترشحها مما كتبت لتكون خير ختام.

قال : هذه السطور (ليس من شك فى أن الوطن - أى وطن - محتاج فى ظروفه المختلفة إلى مجهودات ضخمة من كل قادر عليها ، وإن ضميرى - والحمد لله - مطمئن إلى أننى كمواطن ومفكر وأديب وصحفى ، قد أديت هذه الخدمة غير مبتغ عليها جزاء ولاشكورًا) .

طه حسين

* من منا لا يعرف «طه حسين»؟ لكن من منا أيضًا لا يريد تجديد اللقاء بهذا العملاق الكبير؛ الذى يعد بحق فى طليعة المفكرين العرب الكبار، والرواد الذين أسهموا فى إحياء النهضة الثقافية التى تعيشها أمتنا العربية الآن. والحوار معه فوق أنه ممتع وشيق، يمس كثيرًا من قضايانا الثقافية التى لم يغب عنها «طه حسين»؛ برغم رحيله القريب عن دنيانا.

قلت: «دكتور طه حسين»، إن كتاب الأيام سجل أمين يغنينا عن كثير من الأسئلة التى اعتدنا أن نسألها فى هذا المقام، فضلا عن أن الناس يكادون يلمون بكل شئ، ومع ذلك فمن باب التذكرة، نتوقف أمام تاريخ ميلادك، والبلدة التى ولدت فيها.

قال : فى الرابع عشر من شهر نوفمبر من عام ١٨٨٩ ولدت ، فى
بلدة تتواضع عن القرية اسمها عزبة (الكيلو) ، التى تقع على
مسافة كيلو متر واحد من مدينة مغاغة بمحافظة المنيا بالصعيد
الأوسط .

* تقول فى (الأيام) إن مناسبة مولدكم كانت مناسبة عادية ،
إن لم تكن أقل من العادية لماذا يا ترى ؟ .

- نعم ، فالأسرة رزقت من قبلى بستة أبناء ، فترتيبى إذن بين
أخوتى الثلاثة عشر هو السابع ، ولهذا كان مولدى ، أقل من مناسبة
عادية بالقطع ، خاصة أن والدى الشيخ «حسين على» ، كان
متوسط الحال ، فقد كان يعمل موظفًا فى شركة السكر ، تلك الشركة
التى كانت تملك أراضى الدائرة السنية فى تلك المنطقة من الصعيد .

* عميد الأدب العربى ، لقد حاولت السينما العربية أن تقتبس
بعض سيرتك لتسجلها فى فيلم فاختارت له اسم (قاهر الظلام) ؛
لعلها تريد أن تؤكد على الصفة البارزة التى تميزت بها شخصيتكم
وتميز بها كفاحكم .

- لقد كانت الحالة التى نقلتنى من دنيا المبصرين إلى عالم
المكفوفين ، ذات أثر بالغ فى حياتى ؛ بل هى التى شكلت حياتى بعد
ذلك ، لقد أصابنى فى بادئ الأمر داء الرمد ؛ وهو كما نعرف مرض
طبيعى يصاب به كل الأطفال فى الريف المتخلف صحيًا ؛ ولكن
إهمال المرض وترك الأسرة الطفل حتى يشفى ، أو إحضار حلاق

القرية لمعالجة العين المصابة ؛ كل هذا وخلافه من (الوصفات) البلدى يذهب بالإبصار ؛ لهذا كنت أشن حملاتى ضد الجهل والمرض والفقر ، فهو (ثلاثى لعين) ، جعلت نفسى خصمًا له بقية حياتى .

* دعنا - إذا سمحت - نتوقف أمام طاقة الطموح الإنسانى التى يجسدها كفاحك ، فأنت نموذج يُحتذى فى هذا الميدان ، وسؤالى هو : كيف ننمى إرادة الطموح فى وجدان شبابنا ؟.

- بالعلم ، بالإصرار على العلم ، والثقافة والمعرفة ، هذا هو التحدى أمامنا كأفراد وشعب ، وهو تحدى مواجهة التخلف والعودة إلى الإشعاع الحضارى من جديد ؛ إرادة المتحدى هذه ، هى القوة الدافعة التى تمكننا من تحقيق ما نصبو إليه ، وهى التى يجب أن تعمر قلوب شبابنا باستمرار ؛ ثم نصحهم بعد ذلك بأن يقرءوا ويقرءوا قدر ما يطيقون ، فليس طلب العلم قاصرًا على مناهج الدراسة وحدها وإنما يكمن فى الثقافة بمعناها الأوسع والأعمق .

* لعل هذا الحرص على الثقافة العامة ، يبدو حيويًّا عن صور التخصص الشديد الذى يتميز به عصرنا .

- هذا صحيح ، فليس من المفروض أن يكون الإنسان خبيرًا متخصصًا فى فرع بعينه ، من فروع المعرفة ، ثم يكون جاهلا فيما عدا ذلك من ميادين الحياة من حوله .

* سوف نعبر الكثير من المراحل لنصل إلى دراستك بالجامعة

الأهلية، منذ إنشائها فى عام ١٩٠٨، ماذا تركته الجامعة فى نفسك من أثر ؟

- الجامعة، كانت تتيح لى أن أملأ رئتى من الهواء الطلق، حين أسعى إليها وحين أعود منها، وتتيح لى أن أملأ عقلى من العلم الطلق؛ وكانت تتيح لى علمًا يخلق نفسه خلقًا جديدًا، والتعرف على مختلف مذاهب الأدب وألوان التاريخ. ولكن، بمرور الأيام أصبحت الجامعة وسيلة إلى تحصيل المزيد من العلم والمعرفة، ولم تعد هى الغاية القصوى، خاصة بعد أن ألقى «الشيخ جاويش» فى روعى فكرة السفر إلى أوربا وإلى فرنسا بالذات، وبالفعل أقابل (الخديوى)، وأسافر فى نوفمبر عام ١٩١٤.

قلت : لابد لنا من التوقف قليلا أمام بعثتك هذه، لما تركته من أثر فى حياتك الدراسية، وحياتك الخاصة؛ وما يستوقفنا حقيقة فى هذه المرحلة أنك برغم ظروفك وبرغم الغربة كنت مثالا للدارس النهم الذى يحسن الاستفادة من كل دقيقة من وقته.

قال : فى باريس كانت حياتى مقسمة بين أربعة معاهد.

* وهى ؟

- (السربون)، وفيه كنت أحضر دروس التاريخ القديم، وتاريخ اليونان، وتاريخ الرومان، والأدب الفرنسى والفلسفة والاجتماع، واللاتينى والتاريخ الحديث والجغرافيا.

* والمعهد الثانى ؟

- هو (الكوليج دى فرانس) ، وكنت أحضر فيها درس القرآن بالعربية وعلم النفس.

* والمعهد الثالث ؟

- المعهد الثالث والرابع كانا بصحبة الآنسة « سوزان » زوجتى ، وشريكتى فى الحياة والكفاح فيما بعد ، كنت أهرع معها إلى مكتبة (القديسة جنيفياف) ، هربًا من برد الشتاء الشديد ، ولم تكن أمامى وسيلة للتدفئة فى البيت ، فكنت أنتهز الفرصة وأدرس فى المكتبة وأتدفأ فى وقت واحد.

* أظن ، أن المعهد الرابع والأخير هو (البيت) ، فى رعاية أسرة الآنسة سوزان نفسها.

- نعم ، إن هذا البيت الذى كنا نجتمع فيه كل مساء مع أسرة الآنسة سوزان ، يعتبر معهدًا ، فقد كانوا يقرءون ويتناقشون ، ولم تمض أشهر على إقامتى مع هذه العائلة ، حتى أحببت الآنسة « سوزان » ، وخطبتها ، وانتظرت حتى أحصل على درجة الليسانس فى الآداب من (السربون) ، بعده طلبت من الجامعة أن تأذن لى فى أن أتزوجها.

* هل تسمح لنا أن نقرأ سطوراً من الرسالة التى كتبتها (للسوربون) طالبًا الموافقة على زواجك من الآنسة « سوزان».

قال : (باسما) مازلت أذكر هذه السطور.

قلت: إذن من الأفضل أن نسمعها منك.

قال: «إنه بالنسبة إلى حالتى الخاصة، التي تقتضى اشتراك شخص آخر معى، ليساعدنى على الدراسة، وبالنسبة إلى كونى أقيم فى «فرنسا»، وجدت فى أسرة فتاة كانت قارئة وكاتبة، وقد أخلصت لى الإخلاص كله، بحيث لا أرى بُداً من مرافقتها، فأنا ألتمس من الجامعة التجاوز لى عن الشرط القاضى بعدم زواج الطلبة مدة دراستهم، والإذن لي بصفة استثنائية فى الزواج».

* وكانت الموافـقة من الجامعة بداية رحلة زواج ورفقة عمـر حافلة.

- هذا صحيح.

* «د. طه حسين»، ما أكثر مواقفكم الفكرية لإسعاد البشرية، وبصفة خاصة الإنسان العربى، لكن الوقت المتاح لهذا الحديث يعجل بالوصول إلى نقطة جوهرية هى: حرصك على نشر التعليم باعتباره كالماء والهواء، لا نسألك لماذا لأننا ندرك الآن فى ظل مجانية التعليم الإجابة على هذا السؤال، لكن نسألك كيف تنبهت إلى خطورة هذه القضية؟.

- إن صلاح الأمة لن يتأتى إلا بنشر التعليم بين طبقات الشعب، ونقل هذا التعليم إلى المحرومين فى القرى والكفور والنجوع والأكواخ، ولهذا ناديت بأن العلم كالماء والهواء، ينبغى أن ينال منه الجميع حظهم، وإذا نحن نظرنا فى حال الأمم المتحضرة اليوم، فسوف نجد أنهم تقدموا وسبقونا لأنهم أخذوا أنفسهم

بالشدة فى نشر التعليم بين طبقات شعوبهم.

* تقلدتم مناصب كثيرة فى ميدان التعليم، وفى حقل الثقافة العربية، ما الذى حرصتم على تحقيقه فى كل هذه المواقع.

- كل المناصب التى تقلدتها، من كلية الآداب إلى جامعة القاهرة، إلى جامعة الإسكندرية، إلى وزارة المعارف، إلى رئاسة تحرير جريدة الجمهورية .. إلى غيرها من المناصب، كنت أحرص فيها على شىء تلخصه هذه السطور التى كتبها فى كتابى (جنة الحيوان) حيث قلت:

«اللهم أشهد أنى ما ذهبت إلى الجامعة، أو إلى وزارة المعارف، أو غيرها من مناصب، إلا وذكرت أنى كنت سعيدًا حين تعلمت على حساب الدولة، فمن الحق علىّ أن أتيح بعض هذه السعادة لأكبر عدد من الشباب، ولو استطعت لأتحتها لهم جميعًا.

* منذ أول كتبك (ذكرى أبى العلاء) عام ١٩١٥، (وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية) عام ١٩١٨، (ومختارات من الشعر اليونانى) عام ١٩٢٠، (وقادة الفكر) عام ١٩٢٥، (وحديث الأربعاء)، (فى الشعر الجاهلى)، (وحافظ، وشوقى)، وروائعك القصصية من (الأيام) إلى (أديب) إلى (المعذبون فى الأرض)، (ودعاء الكروان)، و... عشرات غيرها من المؤلفات الضخمة، التى شكلت بالفعل الملامح الأساسية لوجدان الأجيال التى تعلمت منك، وتتلمذت على إنتاجك الغزير، أريد أن أقول: إنه منذ البداية

فى نوفمبر عام ١٨٨٩ ، يوم مولدك ، إلى يوم رحيلك عنا فى أكتوبر ١٩٧٣ ، وآراؤك ، ومؤلفاتك ، محل احترام كل العقول العربية والأجنبية ، وهذا ما تفخر به على الدوام ، من هذا الفيض الزاخر تريد أن تختار سطورًا .

- هذه السطور من رواية (ما وراء النهر) ، أو (قصة لم تتم) .

* لقد طُبعت هذه القصة بعد رحيلك عنا .. حسنًا .. ما هى هذه السطور ؟ .

قال «طه حسين» : «يستطيع الكاتب وحده ، أن يرى ويسمع ويعلم ما يريد ، كما يستطيع أن يسبق الزمن ، وأن يمضى إلى أعماق المستقبل ، وأن ينبئ القارئ والمستمع ببعض ما رأى وما سمع وما علم» .

الفهـــرس

رقم الإيداع		١٩٨٤/٤٧٢١
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٠٩٧٨-٣	ISBN

١٧٠ / ٨١ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

